رَجْعُ الصّدَى

رواية

أيمن زهري

رَجْعُ الصّدَى

إسم الكتاب: رَجْعُ الصّدَى – رواية

المؤلف: د. أيمن زهرى

الناشر: د. أيمن زهرى

رقم الايداع: 2015/8236

الترقيم الدولي: ISBN: 978-977-90-2987-0

رَجْعُ الصّدَي

رواية

أيمن زهرى

كم أشفق على ذلك الطفل وأتمنى أن أحتضنه الآن وأضمه الى صدري لأعوضه بعضا من حنان الأم الذي فقده في مرحلة مبكرة من عمره.

أيمن زهري

1
أيديولوجيا

ثورة يوليو ١٩٥٢ لم تكن ثورة، لقد كانت إنقلاباً عسكرياً. ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ لم تكن ثورة، لقد كانت إنقلاباً عسكرياً أيضا. الملك فاروق كان حاكماً عادلاً، قبل ترك منصبه كي لا تُراق قطرة من دم مصري. صلاح الدين لم يكن مثالياً كما صوره الفنان أحمد مظهر في فيلمه الشهير الناصر صلاح الدين! ... كل الثوابت التي تربينا عليها تتغير ... إنها صدمة بالنسبة لجيلي ربما تجعلنا نفقد حالة التوازن النفسي التي نحتاجها وتجعلنا نتخبط بحثا عن ثوابت تعصِمُنا في عالم يموج بالتغيرات المتلاحقة.

لا أخفيكم سراً أنني كنت من عشاق الزعيم الليبي الذي قتله شعبه في أكتوبر ٢٠١١ بعد ثورةٍ شعبيةٍ عارمة. كنت أتناول طعام الغذاء في برشلونة مع مجموعة من الزملاء أثناء حضوري مؤتمراً حول الأمن في منطقة المتوسط، وكان معنا زميلة ليبية تعمل أستاذة للعلوم السياسية في إحدى الجامعات الليبية. تفحص أحدُ الحاضرين، وكان ممن يعملون في مدرسة الناتو في إيطاليا، هاتفه المحمول وصاح مبتهجاً: لقد قُتِل القذافي. توقفت اللقمة في حلْقي وسال الدمع من مقلتَّي، نظرت نظرةَ إنكسارٍ لزميلتي الليبية أواسيها أو ربما أواسي نفسي. إستمر زميلنا الذي بدا كالعالم ببواطن الأمور يقرأ ما وصله عبر هاتفه حول هجوم حلف الناتو على قافلة القذافي وكيف تمكن منه الثوار وأجهزوا عليه.

صبيحة اليوم التالي تصدّرت صفحات الجرائد صورة الزعيم الليبي وهو مخضّب بالدماء. لم تخلُ تعليقات الغرب، كما الشرق، من نظرات التشفي. ظلت صورة القذافي وهو مخضبٌ بالدماء لا تفارقني لعدة أيام. زاد من إيلامها تلك اللقطات المسجلة التي بثتها قنوات التلفزة وتداولتها المواقع الإلكترونية حول الدقائق الأخيرة في حياة القذافي. لكن لماذا يغمرني الحزن بهذا الشكل على رجل أذل شعبه وأفقره؟ لماذا أحزن على وفاة رجل مات على يديه الكثيرون في السجون من أثر التعذيب؟ لماذا أحزن على رجل بدّد ثروات بلاده سعيا وراء زعامة زائفة إنتهت به إلي ما إنتهى إليه؟ لماذا أحزن على رجل ماتت أمي على أرض بلاده ولم نستطع أن ننقل جثمانها مباشرة إلى مسقط رأسها لكي يوارى الثرى بجوار عظام أجدادها؟ لقد إضطررنا الى حمل جثمانها من مدينة سبها، تلك المدينة النائية، إلى بني غازي، ثم إلى أثينا في اليونان، ثم بعد ذلك الى القاهرة مع الوليد الذي تركته يتيماً وهي تخرجه للدنيا؟ هل لأنني قضيت من عمري ثلاثة أعوام في ليبيا في أوج الثورة الليبية بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٨؟

لا أدري لماذا، لا أدري، ولكن ربما يكون هذا الإحساس نوعاً من التشبث بالماضي، التشبث بالثوابت التي تربينا عليها، تلك الثوابت التي نحسبُ أنها تعصمُنا من الإنزلاق إلى منطقة الصراع النفسي. نصنع لأنفسنا عالماً من الثوابت، أو ربما ما نعتقد أنه من الثوابت. أهي الرغبة في عدم قبول التغيير وقد أتممتُ العقد الخامس من عمري؟ أم هي عدم القدرة على معايشة التغيير؟ لا أدري!.

ذكريات طفولتي منذ أن وُلِدت في تلك القرية النائية في صعيد مصر تطاردُني. أريدُ أن أحكيها، أريدُ أن أقصها عليكم. ربما أتخلص من هاجسٍ ظلَّ يؤرقُني طوال حياتي: لماذا أنا هو أنا؟ ما الذي يشكل قناعاتي في تلك المرحلة الإنتقالية من حياتي، مرحلة الإنتقال من صخب الأيديولوجيا الى مرحلة إجترار الذكريات. أليست السنوات الأولي من عمر الإنسان هي التي تحدد تصرفاتنا في كافة مراحل حياتنا كما يزعم علماء النفس؟ إذن دعوني أُخرج ما في مكنونِ نفسي. دعوني أرى ذلك الطفل الصغير الذي فقد أمه ولم يتجاوز الرابعة عشر من عمره. دعوني أسرد قصة هذا الطفل الذي ربما تتشابه قصته مع الآلاف من أبناء جيله. كم أشفق على ذلك الطفل وأتمنى أن أحتضنه الآن وأضمه إلى صدري لأعوضه بعضاً من حنان الأم الذي فقده في مرحلةٍ مبكرةٍ من عُمُرِهِ.

2

الصندوق

جلست أختي أماني، التي جاوزت عامها الحادي عشر منذ شهر، بجوار النافذة غير مستوعبةٍ لما سوف تلاقيه من مشاق الحياة في المستقبل القريب، وجلست أنا على المقعد الذي بالممر يتوسطنا أبي حاملاً أخي الوليد صابر بينما كانت أمي في مكان آخر في الطائرة. كانت أمي مسجاة في صندوق خشبي بعد أن وافتها المنية في مستشفى "أوباري" بعد ولادة متعثرة لأخي الوليد الذي يحتضنه أبي في المقعد المجاور. لم أكن قد أتممتُ بعد عامِيَّ الرابع عشر عندما حدثت تلك الحادثة التي غيرت مجرى حياة أسرتنا.

رحلت أمي عن عالمنا في تلك البلاد البعيدة بعد أن كانت تُمَني نفسها بمولودٍ ذكر يؤاخي ولدها الأكبر. رحلت بعد أن كانت تحلم بالسكنى في بيتها الجديد الذي بدأته قبل أن تبدأ رحلتها للغربة بمصاحبة أبي. ذلك البيت التي باعت فيه حُليّها ولم يشأ الله لها أن تُقيمَ فيه. شاء الله أن يؤاخي ولدها الأكبر بوليدٍ ثَكِل أمه بعد ساعاتٍ من ولادته في تلك البلاد الغريبة.

بعكس النظريات السكانية التي تفترض إنخفاض الرغبة في إنجاب الأطفال مع إرتفاع ثروة الأسرة، قرر والداي أن ينجبا إبنهما الثالث عندما شعرا أن الدنيا قد إبتسمت لهما وأنه بمقدورهما أن يوفرا لنا حياةً أكثر راحة. أذكر أنه عندما حملت أمي بأخي صابر وعلمت الأسرة بهذا الحمل، وكنا ساعتها في منزل

جدتي بالقاهرة، أن صاح الأطفال الصغار أبناء أخوالي بالجملة الشهيرة المأخوذة عن أحد أفلام الفنان فؤاد المهندس: "فيها بيبي ... مافيهاش بيبي". وفي النهاية كان هناك "بيبي" ولم تعد هناك أم !!.

كانت القطيعة قد بدأت بين مصر وليبيا علي المستوى السياسي نظراً لمعارضة القذافي للسلام الذي بدأ خطواته الرئيس الراحل أنور السادات مع إسرائيل، وكانت الخطوط الجوية المباشرة بين ليبيا ومصر متوقفة. توجهنا من مطار سبها إلى مطار بنغازي، ثم ركبنا طائرة أخرى إلى أثينا حيث إنتقلنا بعد وصولنا بالحافلة إلى مطار آخر لكي نستقل طائرة أخرى تنقلنا للقاهرة. في القاهرة كان في إستقبالنا بالمطار جمعٌ غفيرٌ من أقاربنا حملوا جثمان والدتي ليُوارَى الثَرى في مقابر الأسرة بالصعيد تحت سفح الجبل الشرقي؛ لكي تُجمع عظامها إلى عظام آبائِها ليومِ النشور.

3

أمي والمحروسة

كان للقاهرة أَلَقَها وبريقها في تلك الأزمان البعيدة، في أوائل ستينات القرن العشرين. على الرغم من أن أمي ولِدت في سوهاج عام ١٩٤٤ إلا أنها إنتقلت وهي مازالت بعد في مرحلة الطفولة إلى مصر المحروسة، القاهرة عاصمة الشرق. رحل الحاج حسن شهاب مرة أخرى بأسرته من مدينة سوهاج إلى القاهرة بعد أن كان غادر قريته إلى مدينة سوهاج. كان إرتحال الحاج حسن شهاب مرتبطا بالأساس بمسيرة أبنائه التعليمية في وقت لم تكن فيه المدارس متوافرة إلا في عواصم المحافظات عادة، ولم تكن فيه الجامعات متوافرة إلا في القاهرة والإسكندرية. كان كبار أبناء الحاج حسن شهاب قد رحلوا قبله للدراسة بالقاهرة، كبيرهم في الأزهر وبقيتهم الباقية في التعليم المدني. كان لجدي ثمانية أبناء، ستة ذكور وإبنتين. تزوجت الإبنة الكبرى في قريتنا ورحلت الإبنة الصغرى – أمي – مع عائلتها للقاهرة في طفولتها. عاشت عائلة جَدي في البداية في شارع سوق السلاح بالحلمية الجديدة ثم إنتقلت فيما بعد الى السيدة زينب ليكون جدي بجوار مسجد السيدة زينب التي كان يحرص كل الحرص على صلاة الفجر به. كان المسجد على مسافة خمس دقائق سيراً على الأقدام من المنزل الذي إختاره جدي سكنا له حتى وافته المنية. كنت أسمع من أخوالي أن منزلهم بشارع سوق السلاح كان أكثر رحابة من مسكنهم في السيدة زينب إلا أن القرب من "أم العواجز" كان عوضا لجدي عن ذلك.

نشأت أمي وتربت إذن في كنف أبيها وإخوتها الذكور بعد أن تزوجت أختها الكبرى في بلدتنا قبل أن ترحل الأسرة للقاهرة. لذلك ربما حظيَت أمي بنوع من التدليل على الرغم من شدة أمها التي لم تغير من طباعها الصعيدية الصارمة، هذا بالإضافة إلى شِيَم الكرم ومودة القربى التي كانت تتحلى بها جدتي، حيث كان بيت جدي المحطة الأولى للقادمين من قريتنا من ذوي القربى، حتى أن أبنائها كانوا يسمون البيت "لوكاندة السعادة الأبدية لصاحبتها الحاجة بهيّة،" وبهيّة هو إسم جدتي التي كانت بالفعل بهيّة. تم عقد قران جدتي على جدي وكان عمرها حينئذٍ تسعة أعوام وأنجبت خالي الأكبر عندما بلغت الرابعة عشر من عمرها.

أتيح لخالي الأكبر أن يتم دراسته في جامعة الأزهر وحصل على درجة العالمية وإلتحق إخوته جميعا بكلية الحقوق بجامعة القاهرة بجامعة القاهرة، إلا واحداً منهم لم يكمل دراسته الجامعية وهاجر إلى المانيا في وقت لم يكن متاحاً لكثير من المصريين الخروج من مصر في عهد حكم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، ولم تكن وسائل الإتصال في ذلك الوقت بالقدر الذي يسمح لجدتي أن تطمئن على إبنها الذي طال غيابه. عمل خالي الأكبر بالمحاماة ونجح فيها نجاحا ربما يكون هو الدافع الأهم في إتجاه إخوته لدراسة الحقوق، هذا بالإضافة لما كانت تحظى به كلية الحقوق من ألَق في ذلك الوقت.

لا أعرف لماذا لم تسلك أمي مسلكهم ولكنها إلتحقت بالمدرسة الثانوية النَسَوية بالمنيرة؛ على بعد دقائق من مسكن الأسرة. وقد تحولت تلك المدرسة

إلى مدرسة المنيرة الثانوية للبنات ومازالت قائمة حتى يومنا هذا بشارع الشيخ علي يوسف بالمنيرة بحَيّ السيدة زينب. مازلتُ أحتفظ بصُوَرٍ أمي مع قريناتها في المدرسة ومع مدرسيها في رحلةٍ إلي حديقة الحيوان عام ١٩٦٣، وكذلك صُوَّر زميلاتها من المقاس ٩X٦ التي أعددنها عند التقدم لإمتحان شهادة إتمام المرحلة الثانوية، وأهدين أمي بعضها وقد كُتِبَت عليها إهداءات لها بتلك المناسبة، ورثتها عن ألبوم الصور الذي كان أبي حريصاً على الإحتفاظ به حتى وفاته.

4
أبي

ولد أبي عام ١٩٣٨ في أسرة كبيرة قوامها ثمانية أبناء، أربعة ذكور وأربعة إناث وكان ترتيبه الثالث بين الذكور. لم يكمل أيٌّ من إخوة أو أخوات أبي دراستهم، وكان هو الوحيد بينهم الذي نال قسطاً من التعليم أَهَلَهُ للعمل مدرساً بمدارس وزارة التربية والتعليم، وجعله في مصَّافِ قلة قليلة من أهالي بلدتنا الذين إلتحقوا بالمدارس وإستطاعوا إستكمال دراستهم في ذلك الوقت. هاجر عمي الأكبر للقاهرة وعمل بها لفترة قبل أن يعود لمباشرة أعمال والده "البقال التمويني"، بينما هاجر العم الثاني للقاهرة هرباً من شظف العيش في تلك البلاد وقسوة الأب. صادف رحيل عمي للقاهرة النهضة الصناعية التي أقامها عبد الناصر في ستينات القرن الماضي، فإلتحق بالعمل في مصنع الحرير في حلوان حتى أحيل للتقاعد. ظل عمي بالقاهرة هو وأسرته التي أسسها في القاهرة حتى وافته منذ سنواتٍ قليلة ودُفِنَ في حلوان. لم يزر عمي مسقط رأسه سوى مراتٍ قليلة، ولا أتذكر أنه أتى وأسرته إلى بلدتنا إلا مرة واحدة.

إذن بقي في بلدتنا أبي وعمي الأصغر، وتزوجت عماتي جميعهنَّ في قريتنا. لا أتذكر جدي لأبي إلا في شيخوخته، حيث توفي عندما كنت في العاشرة من عمري. كان في كِبَرِهِ ضعيفاً حليماً، مُنكباً على تلاوة القرآن الكريم، والقراءة في كتب التراث التي كان يحتفظ بها في صندوق خشبي يحرص على ألا تمتد إليه يد

عابثة. كان صندوقه الخشبي الكبير ممتلئاً عن آخره بالكتب الدينية المغلفة بأغلفةٍ من الجلد المهترئ من كثرة الإستعمال، وكانت أوراق تلك الكتب تميل للصفرة، وبعضها كان مكتوباً بخط اليد. كان جدي يتسرّى بالقراءة والتدخين – سجائر "لَف" في علبة كارتون خضراء اللون وورق "بَفْرَة" ومبسم عاجيّ يميل للون البني. وكان مشروبه المفضل "الحلبة الحصى" المحلاة بالحلاوة الطحينية، كما كان يحتفظ في صوانه ببعض قطع الحلوي بطعم النعناع كنت وأختي أماني نحصل على بعض حبات منها بالإضافة إلى كوب من الحلبة في بعض الأحيان.

كان أبي لا يحمل مشاعراً طيبة تجاه أبيه ولا ينسي قسوته عليه وهو صغير، لكنه كان يهابه، على الرغم من وَهَن الشيخوخة، و"يعمل له ألف حساب" كما يقولون. ومما أسفت عليه وتمنيت ألا يحدث، أن أبي كان يحكي لي بعضا من مواقفه السلبية تجاه أبيه أو كان يحكيها لأمي في وجودي، ومنها على سبيل المثال أنه كان يُذكّره دائما بالحديث الشريف "أنت ومالك لأبيك" كنوع من تبرير الإستيلاء على راتبه بعد إكماله تعليمه وإلتحاقه بالعمل، وكان راتبه الشهري وقتها ١٨ جنيها كان يضطر أن يسلمها لأبيه بالكامل ويتحصل منه على جنيه واحد مصروف شهري. وكان من ضمن ما حكاه أنه طلب من أبيه، وهو المدرس (المعلم) ذو الراتب الشهري، مالا في بداية فصل الشتاء لشراء "شِرْز" وهو مسمي "البلوفر" الصوف بلغة بلدتنا في تلك الأيام، فما كان من أبيه إلا أن عنفه قائلا له: ياما إنت شِرِز يا أخي ... شِرِز كان يقصد بها شَرِس. سمعت هذه الحكاية كثيراً من أبي، وكنت أتمنى ألا أسمعها.

كان أبي، رحِمَه الله، أقل إخوته جسماً وأكثرهم ميلاً للسمرة، إن لم يكن هو الوحيد الذي يميل للسمرة بين إخوته. أضف إلى ذلك أنه كان مصاباً بالربو الشُعَبي طوال فترة وجوده على ظهر البسيطة. كان أبي في شبابه فخوراً بعمله مخلصاً له، على الرغم من كونه مدرساً للتربية الزراعية بمدرسة القرية الإعدادية. ربما كان هو الوحيد الحاصل على مؤهل أقل من الجامعي بين المعلمين في تلك المرحلة، وربما أيضا أتاح له عدم تدريسه مادة "مُعتبَرة" الإنخراط في الأنشطة الأخرى بالمدرسة بخلاف التدريس، وكان محبوباً بين تلاميذه وأولياءِ أمورهم. كما كان محباً للغة العربية على الرغم من أنني لم أضبطه متلبسا بقراءة كتاب طوال حياتي معه، إلا أنه كغالبية المتعلمين في جيله كان يحفظ ويردد العديد من الأمثال والحكم وأبيات الشعر العربي التي كان يذكرها ويكررها في مناسباتها وفي غير مناسباتها أيضاً، حتى أنني حفظت بعضها وصرت أكرره مثله.

كان أبي لا يستطيع إعداد كوبٍ من الشاي لنفسه، ولا يعلم من أمور الطبخ شيئا. ربما يُعزى ذلك لنشأته في بيت به، بالإضافة للأم، أخوات كثيرات كان يعتمد عليهِنّ في كافة أمور البيت. وكان من حظه أيضاً أنه عندما كان مغتربا في سنوات الدراسة بمدرسة جِرجا الثانوية الزراعية أن رزقه الله بصديقٍ من نفس البلدة كان يعمل هناك في نفس الفترة، يكبره قليلا في السن، ويعلم ما به من عدم دراية بأمور الطبخ، فكان يساعده في ذلك، مما زاده ربما جهلاً بتلك الأمور طوال حياته.

5
أبي وأمي

لا أعرف بالضبط كيف فكر أبي في الزواج بأمي ولا كيف كانت ردة فعل أمي وأهلها عندما تقدم أبي لخطبتها، وهي التي عاشت غالبية سِنِي عمرها في القاهرة مستمتعة بالعيش "البلدي"، تشتريه أسرتها من الفرن، بديلاً عن خَبز أرغفة العيش "الشمسي" في الفرن البلدي، وحيث مصدر الإنارة الكهرباء بديلا عن لمبة الجاز، والمياه تصل إلى بيت أبيها من خلال الصنبور بديلاً عن "عمِ خير" السَقَّا وقِربَته المصنوعة من جلد المعيز، والطرقات المرصوفة، وأَلَق القاهرة، وإخوتها وزوجاتهنَّ البندريات. كيف كانت أمي تفكر؟ لا أدري... هل كانت مندفعة للحياة البدائية في قريتنا كنوع من المغامرة، أم هي الرغبة في العودة للجذور، أم البقاء قريبا من أختها المتزوجة في القرية والتي تكبرها بأكثر من عشر سنوات؟ أم هو دور عمتها "زليخة" أم خطيبها؟ أم فرحاً بقربها المتعَلِم الوحيد في دائرة أقاربها الضيقة؟ في الحقيقة لا أجد جواباً قاطعاً لذلك، ولم يَدُر بخلدي قبل أن ترحل أمي أن أسألها عن السبب.

ربما كانت مِزية أبي في ذلك الوقت أنه متعلم وله عمل حكومي، لكن أغلب الظن أن صلة القربى لعبت دورا كبيرا في هذه الزيجة، حيث أن أمي إبنة خاله، وكذلك المودة التي كانت تجمع بين جَدِي لأمي وجَدِي لأبي، وحب العلوم الدينية الذي كان يجمعهما، بالإضافة إلى إنتمائهما لنفس العائلة. ربما كانت

هذه المرة الأولى التي تأتي فيها عربة نقل موبيليات من القاهرة لقريتنا محمّلة بأثاث العروسين – كما في البندر – مكوناً من غرفةِ نوم وغرفة سفرة وغرفة صالون ومطبخ، لتحل في بيت جدي في وقت كانت معظم الزيجات تكتفي بسرير ودولاب، وربما تسريحة، في غرفةٍ واحدة.

قد لا أجد الآن مبررا لحنق أبي على أبيه لإحتجازه جُلَّ راتبه، لأن جدّي ربما كان هو الذي دفع معظم تكاليف تلك الزيجة. من المؤكد أن خالي الأكبر قد ساهم في ذلك، ولكن لا يمكن أن أتصور أن جدي لم يساهم بنصيب كبير في أتمام هذا العُرس.

6
البيت الكبير

كان بيتُ جَدِي الذي عشت فيه طفولتي قبل السفر إلى ليبيا مع العائلة من أفضل البيوت في البلدة مقارناً بالبيوت الأخرى في بلدتنا. فالبيت مبني بالطوب الأحمر المحروق، وإن كانت المادة المستخدمة في لصق الطوب بعضه ببعض كانت من الطين. كما أن سقف البيت كان من عروق الخشب المعقود فوقها ألواح الخشب وجريد النخيل في بعض الأسقف. محارة الحوائط كانت من الطين المطلي بالجير، كما كان السلم مصنوعاً من الطوب الأحمر وألواح الخشب بخلاف سلالم بيوت القرية المصنوعة من الطوب اللَّبِن والطين. أما باب البيت فكان كبيراً محكم الصنع والغلق. بيد أن المزية الكبري في البيت كانت تتمثل في وجود دورة مياه ذات قاعدة "بلدي" مصنوعة على ما أعتقد من الرخام، في وقت كانت الغالبية العظمى من سكان القرية يقضون حاجتهم في الخلاء، أو في الزرائب أو البيوت المهجورة.

كان بيتنا يتكون من طابقين بالإضافة الي السطح، وملحق به بيت آخر بجانبه كنا نسميه البيت القبلي، بمدخل خاص، كان به فرن أخرى للخبيز بخلاف الموجودة في البيت، وكنا نستخدم البيت الملحق هذا لتخزين الوقيد (وقود الفرن) ونستخدمه في خبيز العيد، وأحياناً في الإحتفاظ بالأُضحية حتى يوم

العيد. لم تكن لدينا ماشية عادةً أو جاموسة كعادة أهل القرية، ولم تكن لدينا أراض زراعية نباشرها بأنفسنا.

لم يكن أحدٌ مقيماً في البيت سوى جدي وجدتي وأسرتنا الصغيرة، فكنا تقريباً نفترش معظم حجرات البيت، عدا حجرة جدي وجدتي ومكان يحب جدي الإستراحة به يسمى السقيفة. كانت غرفة الصالون في مدخل البيت مباشرة حيث إفترشت أسرتي تلك الغرفة بصالون مذهب وسجادة وطاولة صغيرة، وكانت تلك الغرفة هي الوحيدة بين غرف البيت التي يغطي أرضيتها قطع البلاط الملون الذي كان مستخدماً في ذلك الوقت. كانت هذه الغرفة مغلقة بشكل دائم لا تُفتَح عادةً إلا لأصدقاء أبي الأغراب، زملائه في المدرسة، الذين كانوا يأتون من محافظات الدلتا عادة، حيث لم يكن قد تخرج من أهل البلدة أو البلدان المجاورة ما يكفي من المعلمين لسد الطلب في محافظات الصعيد. وكان هؤلاء المبتعثون يقيمون في إستراحة الوحدة المجمعة بجوار المدرسة، والمصالح الحكومية الأخرى في القرية.

على الجانب الآخر من الطابق الأرضي كانت توجد غرفة السفرة. كان بالغرفة سفرة خشبية كبيرة مغطاة دائما بمفرش من المشمع الثقيل المزخرف، يحيط بها ثمانية مقاعد خشبية ذوات قواعد جلدية وثيرة، بالإضافة الى "شوفونيرة" ممتلئة بأدوات المائدة. بين غرفة الصالون وغرفة السفرة توجد باحة البيت الواسعة، ثم في الخلف المنور وكنا نستخدمه في تربية الحمام وبعض الطيور، ثم بجانب المنور بئر السلم المؤدي للطابق العلوي، وبين الطابقين يوجد الحمَّام. في الحقيقة هو

دورة مياه وليس حماماً، لأننا لم نكن نستحم فيه. في الطابق العلوي توجد باحة كبيرة على يمينها وقبالة السلم المؤدي للسطوح يوجد "زيرين" لتخزين مياه الشرب، وقد تم تثبيتهما على قواعد مصنوعة من الطوب الأحمر المثبت بالأسمنت، وعلى كل "زير" غطاء من الخشب عليه كوب كبير (سَطْل) من الألومنيوم. يطل على الباحة العلوية غُرفتان من كل جانب: غُرفتان بمدخل واحد في الناحية الجنوبية وهما مُستقَرَنا ومُقامنا طوال وجودنا في البلد وغرفتان منفصلتان على الجانب البحري، واحدة لسكنى جدي وجدتي والأخري مفتوحة بالكامل وبها دكة كانت محل إقامة جدي المفضلة. على الجانب الشرقي للباحة غرفة تبدو كملحق لهذا الطابق بها الفرن البلدي وبعض مواد الوقود، و"طِشْت" بلدي للإستحمام والغسيل.

كانت الطيور تتنقل بين الطابق العلوي والسفلي بحرية في النهار عندما نفتح لها باب المنور في الطابق السفلي لتشاركنا حياتنا بشكل طبيعي. وأذكر أن جدتي عندما كانت تصلي على الحصير في الطابق العلوي وتجري أمامها الطيور في بعض الأحيان أن كانت تهشها وتكمل صلاتها، ولا تجد حرجاً في ذلك.

مسكننا كان بالغرفتين المتداخلتين في هذا الطابق من الناحية الجنوبية. كانت الغرفة الداخلية تطل على مدخل البيت وكان بها شباك خشبي مُحاط بشبكة من أسياخ الحديد، وكان هذا الشباك هو أول شيء أقفز من نومي للجلوس فيه لأري مدخل منطقتنا السكنية والقادمين إلى منزلنا. بعد أن قرر أبناء عمومتي فيما بعد هدم المنزل وإنشاء منزل عصري حديث، سعيت للحصول على هذا

الشباك للذكرى، ولكنهم للأسف باعوه ضمن ما باعوا من أخشباب البيت، وأسِفتُ علي ذلك أسفاً كبيراً.

كانت الغرفة الداخلية كما ذكرت تحتوي على غرفة نوم كاملة، دولاب وسرير وتسريحة وقطعتين "كمودينو". كانت الغرفة الخارجية تحتوي على دِكَّة، نستقبل عليها الأقربين، وكذلك مطبخ كامل بمعايير ذلك الزمان، به "نملية" وموقد من الكيروسين، وطاولة عليها بعض أدوات المطبخ. لم تكن الكهرباء قد دخلت بلدتنا بعد، وكنا نعتمد على الكيروسين في الإضاءة، وكان لدينا لمبة جاز "نمرة عشرة" ببلورة زجاجية، في وقتٍ كانت معظم البيوت تستخدم لمبة صاروخ بدائية بدون بلورة زجاجية.

كان السلم المؤدي لسطح البيت يقودنا فقط للجزء العلوي فوق الجهة الجنوبية للبيت، وأذكر أن جدي قد ترك لنا فوق هذا السطح ماكينة يدوية لعصر القصب. الجانب الشمالي للسطح لم يكن متصلاً بالجزء الجنوبي، وكنا نصعد إليه بسلم خشبي متحرك، وكنا نستخدم هذا الجانب في تجفيف بعض المحاصيل الزراعية مثل قرون الشطة، وكذلك التمر الذي كنا بعد جني النخل نقوم بتحميصه في القرن ثم ننثره فوق السطح حتى يجف، ثم نضعه في "بلاليص" و "أزيار" قديمة حتي يتسنى لنا إستخدامه طوال العام.

7
منطقتنا السكنية

كانت منطقتنا السكنية تقع بين الحقول وأطلال البيوت القديمة التي هجرها أقاربنا ليقيموا في بيوت طينية على رؤوس حقولهم في نجعٍ تابع للقرية بعد أن تعبوا من الرحلة اليومية بين مقار سكنهم في القرية وحقولهم البعيدة. يمثل الطريق القادم من مدخل القرية فاصلاً بين بيوتنا والفراغ الأخضر الذي يمثل الحقول من الناحية الجنوبية حتى يتقاطع مع خط الأفق. مدخل القرية إذن لا يبعد عن منطقتنا السكنية أكثر من ثلاث دقائق سيراً على الأقدام. كان بيت عمتي "تفيدة" أول البيوت من ناحية الطريق العمومي، وكان أمامه مصطبة تمثل محطة أساسية للداخل والخارج، وللباعة الجائلين والشحاذين، كما لو كانت ميداناً عاماً بمصطلحات البندر.

فوق تلك المصطبة ناحية الشمال بعدة أمتار كان بيت جدي "أبوشامة" حيث يسكن في الطابق الأول – والأخير – عمي "عثمان"، ويظهر بوضوح من شباك غرفته راديو أخضر ماركة "تليمصر" كان من النوع شائع الإستخدام في ذلك الوقت. نسيت أن أقول لكم أننا كنا نمتلك راديو ماركة "ناشيونال" بغلاف قيّم من الجلد باللون البني كنا نضعه أيضا في شباك غرفتنا المطلة على الشارع، لكن صوته لم يكن ليصل الى مدخل المنطقة كما مذياع عمي عثمان. كان مذياع عمي عثمان مفتوحاً طوال النهار، منذ بداية الإرسال الإذاعي

للمحطة الإذاعية الوحيدة التي كان يمكن إلتقاطها في بلدتنا في النهار وهي إذاعة البرنامج العام، حتى المساء عندما كان يمكن إلتقاط بعض الموجات الأخرى مثل صوت العرب. كان على عمي عثمان أن يحشو مذياعه بالحجارة "الطورش" التي كنت أتعجب من إسمها. كيف لتلك الحجارة (البطاريات الجافة) أن تكون مصابة بالطَرَش وهي التي بدونها لا يخرج صوت الراديو!!. بعد سنوات عديدة عرفت السبب وأن "طورش" هذه هي "شعلة" باللغة الإنكليزية، وبالفعل كانت الشعلة هي شعار تلك البطاريات. كانت ثقافتنا عربية لا يشوبها شائبة.

كنت أشعر وكأن عم عثمان يتعمّد أن يطلق صوت مذياعه في المنطقة ما إستطاع إلى ذلك سبيلا. حقيقة كان الرجل في قمة التواضع والأدب الذي يجعلني لا أميل إلى أنه ربما تركه هكذا للتفاخر وهو من القلة القليلة التي كانت تملك مثل هذا الجهاز في هذا الوقت، لكن ربما يكون قد أطلق صوت مذياعه كنوع من المساهمة في نشر الثقافة والبهجة معاً. كان يمكن سماع صوت راديو عم عثمان عند عودتنا من اللهو في الحقول أو أثناء العودة من إتجاه مدخل القرية.

مخزن الجاز الذي يملكه "عم خزام" والذي يتردد عليه بإستمرار إبنه فاروق كان علامة مميزة قبالة بيت عمتي تفيدة في مدخل منطقتنا السكنية وكان به شجرة "نبق" لا نكُفُ عن تسلق سور المخزن لجني ثمارها، أو حذفها بالطوب لنفس الغرض في كثيرٍ من الأحيان.

8
بلدنا

يقول أحد الحكماء "من ليس له قرية فليبحث له عن قرية،" وأنا بدوري أعتقد أن القرية هي الأصل وهي المدرسة التي يتعلم فيها الإنسان قيمة الأرتباط بالأرض دون الحاجة الى قراءة كتب التربية الوطنية أو حتى دراسة التاريخ. ولا شك أن القرية قد سبقت المدينة كنمط من أنماط الحياة البشرية. قريتي ذات الإسم الفرعوني قابعة في ذات مكانها منذ فجر التاريخ، تمتد من سفح الجبل في الشرق حتي يلامس ترابها مياه النيل في الغرب. إنفصل عنها الجزء المتاخم للجبل ليصبح قرية منفصلة ولكن مازلنا ندفن موتانا تحت سفح هذا الجبل. لذلك إرتبط الجبل في ذاكرتي بالموت، أمي وأبي وعمتي حميدة وعمتى صفية وعمي ثابت وعمي فيصل وخالي شهاب وخالتي نسيم وجدي وجدتي ومحمد إبن عمتي وصديق طفولتي هيكل حسين، في ظلال هذا الجبل كان مثواهم الأخير.

لابد أن أمي فرحت بتبكيرها بذَكَر في شهر يونيو ١٩٦٤ في هذا المجتمع الذكوري الذي ينسب الأم والأب لإبنهم الذكر فأصبح أبي "أبو أيمن" وأصبحت أمي "أم أيمن". لابد أن جدى وجدتي قد فرِحا أيضا بقدوم حفيدهما الثاني بعد سنوات من وفاة حفيدهم الذكر الأول إبن عمي الأكبر في طفولته، ولا شك في أن جدتي لأمي قد شدت رحالها من القاهرة إلى بلدتنا للإطمئنان

على الأم والمولود. لابد أن والدي قد أرسل لهم برقية بقدومي للحياة الدنيا؛ حيث لم تكن هناك وسائل إتصال ميسّرة في ذلك الوقت سوى البرق.

ولِدْتُ قبل أن تصل آثار إختراعات "إديسون" بلدنا، فلم يكن التيار الكهربائي قد وصل إلى قريتنا بعد، ولم يكن بها مصدر للماء إلا ثلاثة صنابير عمومية في أماكن متفرقة من القرية. كان "عمِ خير السقا" يحضر لنا الماء في قربة مصنوعة من جلد المعيز في مشهد يشبه ما نشاهده الآن في فيلم السقّا مات. كان عم خير رجلاً مُسِناً حافيَّ القدمين يملأ أزيارنا يوميا في مواعيد شبه منتظمة نظير قروش يتقاضاها كل شهر، وكانت أمي تجود عليه أحيانا ببعض العطايا العينية مثل بعض أرغفة الخبز أو المأكولات. طبعا ليس هناك مجال للحديث عن شبكة مجاري أو أي شيء من هذا القبيل، لأنه –كما ذكرت– لم تكن هناك دورات مياه في معظم بيوت القرية.

الحياة الإقتصادية في قريتنا كانت تعتمد على الزراعة مثل كافة القرى المصرية، لكن الملكيات الزراعية كانت صغيرة ومُفتَتة، ولم يكن يتيسر للغالبية العظمى قدراً من الأرض الزراعية يكفي حاجاتها، فكان التعليم هو الباب الملكي للحصول على وظيفة حكومية تضبط ميزانية الأسرة، لذلك كان للتعليم قيمة وكان للمتعلم شأناً. أما من لا يملك أرضاً زراعية ولا وظيفة حكومية فلا مجال أمامه لكسب الرزق إلا العمل أجيرا في أرض الآخرين، أو الإلتحاق بـ "الترحيلة" أو العمل أجيرا في القاهرة.

مثل معظم القرى المصرية الكبرى في هذا الوقت كان بقريتنا تجمعاً تجارياً في منطقة بوسط القرية يسمى "الشارع." وكأن ليس بالقرية شارع سواه. وكان الشارع به مجموعة من الدكاكين والمقاهي المتواضعة التي تبيع السجائر والمعسل والدخان والأدوات المدرسية، وكان بعضها يبيع المشروبات الغازية التي يتم تبريدها بوضعها في الماء داخل إناء من الفخار. كان هناك أيضا دكان يبيع البيرة المبردة بنفس طريقة المياه الغازية، وبعض بائعي الفاكهة، ومطعم يبيع الفول "النابِت" صباحاً والفول "المدمِس" مساء؛ بالإضافة إلي الطعمية والباذنجان المقلي. لم يكن يوجد في بلدتنا محل جزارة لأن اللحوم كانت تباع فقط يوم الخميس وعلى نطاق محدود يوم الأحد، فلم تكن هناك حاجة لشغل دكان/محل طوال الأسبوع. كان يعد من الموسرين من يشتري اللحوم بشكل دائم ولو مرة واحدة في الأسبوع.

معظم دكاكين القرية كانت تتهافت على البيع على النوتة – البيع الآجل – لأصحاب الرواتب الشهرية، وكان لأبي حساب لدى دكاكين عدة فلم أكن بحاجة لحمل النقود لشراء مستلزمات الأسرة، فقط أذهب الى الدكان الذي يحدده والدي وأطلب ما يشاء "والحساب يجمع" كما يقولون. لم تكن هناك أفراناً لبيع الخبز؛ حيث كانت البيوت المقتدرة تخبز الخبز الشمسي المصنوع من حبوب القمح بالمنزل كل عدة أيام، بينما كانت البيوت الفقيرة تخبز "البَتاو" الصعيدي المصنوع من حبوب الذرة العويجة المخلوطة بالحلبة.

9
مقاهي بلدنا

كانت المقاهي تمثل مسرحاً مهماً للعلاقات الإجتماعية في القرية، وكان معظمها أقرب للغُرَز – جمع غُرزة؛ حيث كان الرواد يفترشون الحُصر المصنوعة من "الحَلفا"، وكانت "النَصْبة" عبارة عن قفص كبير بجواره موقد من الكيروسين وبعض الأكواب وجردل ماء لزوم غسل الأكواب وآخر للماء النظيف الخاص بإعداد المشروبات، وكانت الأكواب عادةً تُغسَل داخل الجردل بنفس المياه، لا تتغير لفترة طويلة. وتختلط عادة الروائح داخل المقهى ولكن ما يميزها كلها هو رائحة الكيروسين المحترق. لم يكن هناك تنوّع كبير في المشروبات، فهي عادة لا تتجاوز صنفين أو ثلاثة أهمها الشاي والحلبة.

يَشُذُ عن تلك القاعدة مقهيان، واحد في نهاية الشارع التجاري إسمه "نادي الشباب" وآخر في آخِر الجزء المأهول من القرية ناحية الغرب، حيث كان يوجد بهما "دِكَك" وطاولات بدلاً من "الحُصر" وبهما خيارات أكثر بالنسبة للمشروبات. كما يوجد بهما راديو، وفي مرحلة تالية دخلهما التليفزيون الأبيض والأسود الذي يعمل بالبطارية قبل دخول الكهرباء لقريتنا. كان نادي الشباب هو الأقرب لمحل إقامتنا وأعتقد أن أبي كان يجلس عليه مع أصدقائه من "أفندية" القرية. قُبَالة نادي الشباب كان هناك دكان عمي الديب فراج وكان من الظرفاء أصدقاء والدي، وكان رجلا مجدداً مبتكراً في تجارته بمقاييس عصره.

10
حلويات بلدنا

في أواخر الستينات وأوائل السبعينات لم نكن نستمتع في طفولتنا بما يستمتع به أبناؤنا الآن من تشكيلة غير محدودة من الحلويات والمقرمشات والشيكولاتات والعصائر. كانت الحياة بدائية إلى حدٍ كبير، وإيقاع الحياة بطيء، والملذات شحيحة، ولكن النفوس كانت أكثر رضا وقناعةً مما نحن فيه الآن. كانت حلوياتنا إما طبيعية مجانية من المزارع، أو صناعية تشتريها قلةٌ قليلةٌ من الأطفال من دكاكين القرية. كان من أهم حلوياتنا الطبيعية البلح الذي كنا ننتقيه من تحت أشجار النخيل، وكنا نأكله فَجَّاً أيضاً، وكان الأشقياء يتعجّلون نزوله فيقذفون أشجار النخيل بالحجارة لتساقط عليهم بلحاً فجَّاً في كثير من الأحيان، ورُطَباً جَنِيَّاً في بعض الأحيان. وكان أكثرنا جسارة يتجرأ علي صعود النخيل للفوز ببعض ثماره ومشاركتها مع الرفاق. لم أكن من فئة الأكثر جسارة لكنني أذكر أنني تسلقتُ النخيل عدة مرات رغم تحذيرات أمي الشديدة بعدم إرتكاب ذلك الفعل.

كنا نستمتع أيضاً بتسلق أشجار "النَبّق" لجمع بعض حباته أو قذفه بالحجارة كما كنا نفعل مع أشجار النخيل. بالإضافة إلى البلح والنبق كنا نصادف أحيانا نبات "عِنَب الديب" وهو نبات تشبه ثماره عناقيد العنب ولكن حباته أصغر كثيراً من حبات العنب ولون حباته الناضجة بنفسجي داكن يميل

للسُمرَة، فنَلْتَهِم حباته التي تشبه في مذاقها ثمار "الحَرْنْكَش". بالإضافة الى ذلك كنا، وبلا إستئذان في حالات كثيرة، نسمح لأنفسنا بقطف بعض الثمار من الحقول مثل الخيار والفلفل الأخضر وأحيانا نأكل ثمار الباذنجان الفجة.

كانت الفاكهة في ذلك الوقت شحيحة ونادراً ما يشتريها الكثير من أهل بلدتنا إلا على فتراتٍ متباعدة، كانوا، عادة، يشترونها في المناسبات خاصة لعيادة المرضى. كان البطيخ والشمام يباعان بالقطعة في الشارع التجارى بالقرية لتكون متاحة لمن لا يمتلكون رفاهة شراء بطيخة أو شمامة كاملة، وكان من المعتاد أن تجد البائع وقد وضع أمامه قفصاً من الجريد عليه قِطع البطيخ أو الشمام، الواحدة بتعريفة (نصف قرش)، وكان من المعتاد لمشتري تلك القطع أن ينحت قطعة البطيخ كما تُنحت قطعة الشمام. في الحقيقة لم أكن بحاجة الى أن أسلك تلك المسالك وأنا إبن أحد موظفي القرية فكان أبي، رَحِمَهُ الله، يشتري لنا الفاكهة من عند "عمِ شوقي سالم" بصفة دائمة. هذا بالإضافة الى أنواع الفاكهة الغريبة على القرية في ذلك الوقت التي كان يشتريها لنا من مدينة سوهاج، عاصمة المحافظة، مثل الجزر الأصفر، الذي لم تكن تعرفه غالبية أبناء القرية، وكذلك ثمار "الكاكا" التي تشبه الطمام.

بالنسبة للحلويات كان هناك نوعان، نوع يمكن شراؤه من الدكاكين والنوع الآخر يتم تصنيعه في المواسم والأعياد. الحلويات المتوافرة في دكاكين القرية كانت حصراً عبارة عن الدروبس – خاصة بطعم النعناع – والملبن وقطع الحلاوة الحمصية والسمسمية والحلاوة العلف – تشبه بالفعل علف الحيوانات

لكنها مكونة من السمسم والسكر – وبسكويت "بسكومصر" والطوفي. ولم نكن وقتها نعرف شيئاً عن تاريخ الإنتاج وتاريخ الصلاحية، ولا أين أو متى تم تصنيع هذه الحلويات. هذه الحلوى، وإن كانت القطعة بنصف قرش، كانت عزيزة على نسبةٍ كبيرةٍ من أطفال قريتي في ذلك الحين.

النوع الآخر من الحلويات كان موسمياً يتم تصنيعه فقط في عيد الفطر المبارك وفي الأفراح والليالي الملاح. لا يذهب خيالكم بعيداً للبسبوسة والجاتوه والتورته والكيك، فكل تلك الأسماء كانت غريبةً على مسامع غالبية أبناء قريتي. الحلويات التي كان يتم تصنيعها في الأعياد والأفراح كانت عبارة عن البسكويت والكعك والغريبة، وكانت كالبسكويت والكعك والغريبة التي يتم تصنيعها الآن غيرَ أنها تُعَدُّ في البيوت بالسمن البلدي والدقيق البلدي، لذلك كان لها نكهة خاصة ورائحة زكية تنتشر في أرجاء القرية خلال الأيام الأخيرة من شهر رمضان وحتى إنتهاء أيام عيد الفطر المبارك. بالإضافة الي تلك المخبوزات، كانت بيوت القرية تخبز "الفايِش" وهو خبزٌ يشبه البقسماط كنا نغمسه في "الشاي بالحليب" كلَّ صباح.

كانت حلويات الأفراح هي ذاتها حلويات العيد يضاف إليها في بعض الأحيان نوع آخر يسمى "فطيرة أم الشعور"، ربما تكون من خصوصيات قريتنا والقرى المحيطة بها أو ربما تكون عادة أهل الصعيد الجواني بشكل عام. وفطيرة أم الشعور يتم تصنيعها من الفطير المصنوع من عجينة القمح والذي يتم تقطيعه

لشعيرات تشبه الكنافة يتم وضعها في صينية مع كمية كبيرة من السمن البلدي ومحلول السكر، ويتم إنضاجها في الفرن البلدي لتصبح مثل صينية الكنافة ولكنها تمتاز عنها بدسامَتِها الزائدة وإمكانيه تخزينها لفترة أطول دون أن تفقد نكهتها المحبَبَة. كانت أسرة أمي في القاهرة تحب هذا النوع من الفطائر وكانت أمي تحرص على أن تُعِدّ كميات كبيرة منها ضمن ما تحمله من خيرات الصعيد لأُسرتها بالقاهرة.

كانت الأسرة الممتدة في قريتنا تحتفل في رمضان بتصنيع الكنافة منزلياً، وكانت أمي تشارك عَمَّاتي في إعداد كمية كبيرة منها مرة أو مرتين في رمضان. كانت أمي وعمّاتي يجتمعن في البيت القبلي المجاور لبيتنا لإعداد الكنافة وإعداد فرن خاص مصنوع من الطين، مثبت عليه صينيه كبيرة لإعداد الكنافة. بعد إعداد العجينة السائلة تتولى إحدي النساء حشو الفرن بالبوص وإشعال النار والحرص على إستمرارها مشتعلة بينما تتولى الأخرى صب العجينة السائلة على الصينيه الساخنة من خلال "الكوز" ذو الفتحات المتَرَاصَّة بحركاتٍ بهلوانية كم سعِدنا بها، ثم ترفع القرص الطازج لتدهن الصينية بالزيت إستعدادا لصب العجينة السائلة مرة أخرى، وهكذا حتى إنتهاء الكمية. هذه العملية منذ بدء الإعداد لها حتى إنتهائها كانت مناسبة إجتماعية سارَّة للكبار والصغار. كنا نلتهم كميات كبيرة من الكنافة قبل أن تنتهي هذه المناسبة ثم تأخذ كل أسرة نصيبها. نسيت أن أقول لكم أن بلدتنا لم تكن تعرف بعد "صواني الكنافة"؛ وكنّا نقتصر عادة على أكل الكنافة بصب الحليب الساخن عليها مع ملعقة من السمن وكثير من السكر.

كان تناول البلح المحفوظ في الأزيار والبلاليص وكذلك الفول السوداني والحلوى من ضمن طقوس عيد الفطر. وكُنّا ننتقل، مع الكبار، من بيت لآخر للمعايدة والإستمتاع بحلويات العيد. الفول السوداني لم يكن يقدم محمصاً أو مملحاً ولكن كان عادة ما يقدم منقوعاً في الماء. لم تكن أمي تنقع لنا الفول السوداني في الماء كما كانت تفعل عمتي "تفيدة"، فكنّا نحرص على عيادتها في هذه المناسبة للإستمتاع بالفول السوداني المنقوع. كانت طريقة إعداد الفول السوداني كما كانت عمتي أمد الله في عمرها – أعتقد أنها جاوزت التسعين الآن – تقوم بتحميص الفول السوداني بقشره في الفرن البلدي ثم تلقيه ساخنا في وعاء به ماء وملح ليلة العيد، وتتركه حتى الصباح قبل أن تقدمه لزوارها. أحببت هذه الطريقة وإعتدت على إعداد هذا النوع من الفول السوداني كل عيد، ربما لأتذكر تلك الأيام الخوالي وأتذكر عمتي.

11
سوق الخميس

سوق الخميس هو سوق قريتنا الذي كانت تُشَدُ إليه الرِحال. كان السوق يقع في مكان بعيد على أطراف القرية وكان عبارة عن قطعة أرض كبيرة يفترشها الباعة القادمين من القرية ومن خارجها. كان السوق يبدأ عادة مع ساعات النهار الأولى ولا يستمر إلا لسويعات قليلة فكنا نحرص على الإستيقاظ مبكراً للذهاب للسوق أنا وأختي "أماني" مع إبن عمتي "هيبة" الذي يكبرني ببضع سنوات وأخيه الأصغر "زايد". كان السوق يمثل فرصة للبائعين لعرض بضاعتهم من أدوات المنزل والبهارات والبقول والخضروات والحبوب وأدوات الزراعة والأقمشة غير المصنعة حيث لم تكن قد إنتشرت تجارة الأقمشة المصنعة بعد، وكذلك البضائع النسائية مثل الفلايات والأمشاط وبِنَّس الشعر والأطواق والمرايات وغيرها. هذا بالإضافة إلى ما يعنينا نحن الأطفال وهو الحلوي حيث كان هناك نوعان من الحلوي لا نجدهما في دكاكين القرية، حلوى لا أذكر إسمها الآن كانت هشّة كالإسفنج وملونة وكان البائع يقطعها بسهولة، وحلوى أخرى كانت سائدة في الصعيد هي حلوى العسل وكانت تعرض على شكل أقراص تشبه في شكلها أرغفة الخبز الشمسي يكسرها البائع بصعوبة ويضع قطعة منها في ورقة مقابل تعريفة أو قرش. هذا بالإضافة الي الترمس وحبات الفول المدمس المحمصة والمنقوعة في الماء التي كان يبيعها عادة بائعوا الترمس.

كان في آخر السوق مكان لبيع الماشية، الجاموس والبقر في ناحية والمواشي الصغيرة (الماعز والخراف) في ناحية أخري وكذلك مكان آخر لبيع الحَمِير. كان يمكن أن نلاحظ بسهولة أن عمليات البيع والشراء، خاصة للماشية والمنتجات الزراعية، تتم وكأنها عملية مقايضة، فالبائع لا يخرج من السوق إلا مشترياً. كما يمكن ملاحظة أن غالبية البائعين والمشترين هم من أهل القرية بخلاف الأسواق الكبيرة في عواصم المدن، كما كانت المنتجات كلها أو معظمها بدائية الصنع فالمقصات والسكاكين وأدوات الزراعة كانت من صنع حدادين محليين. يبدو أن الصين لم تكن قد ظهرت للوجود في هذه الفترة! كنت أعود من السوق ببعض من الحلوى وكثير من البهجة.

.

12
أكل عيش

"أكل العيش مُر،" هكذا يقول المثل الشعبي وهكذا رأيت في قريتي، فبإستثناء الموظفين والميسورين من أصحاب الأطيان، كان الجميع يشقى للوصول لحد الكفاف. كما ذكرت لكم، لم يكن الإعتماد على الزراعة كافياً للوصول إلى حد الكفاف، فكان الناس يتحايلون على المعايش من خلال العمل أُجَرَّاء باليومية لدى الغير، أو الذهاب إلى "الترحيلة" مثل جارنا عنتر وعم حسين وغيرهما من أبناء قريتنا، يغيبون عنّا أياماً وأسابيعَ طويلة ليعودوا ببعض الجنيهات التي تسُدُ رَمَق أُسَرِهم بالكاد. كان الرحيل للقاهرة بديلاً آخراً لبعض أبناء قريتنا، يعيشون على هامش الحياة فيها في منطقة الإمام الشافعي كالأموات بين الأموات. حيث كانوا يتجمعون في المساء على إحدى المقاهي القريبة من مقام الإمام الشافعي إنتظاراً لمقاول الأنفار للحصول على "بِياتَة" للعمل معه صباح اليوم التالى. البياتة جزء يسير من الأجر لتأكيد جدية الإنخراط في العمل مع المقاول صبيحة اليوم التالي.

كان بعض طلبة المدارس الإعدادية يرحلون في الصيف للقاهرة، ليس للترفيه بالطبع، ولكن للعمل مع أقاربهم في القاهرة أو العمل كباعة جائلين في موسم التين الشوكي، يتحملون وخز الأشواك لتوفير ما يكفي لسداد تكاليف دراستهم وتخفيف العبء عن آبائهم. كان أبي يقابل العديد منهم في زيارته

الصيفية للقاهرة وكان في الحقيقة فخوراً بهم. في موسم القطن وتحت لهيب أشعة الشمس كان العديد من أطفال القرية يعملون في جمع الدودة، دودة القطن مقابل قروش قليلة كل يوم. كنت أغبطهم، غير عابئ بمعاناتهم أو مستوعب لها، على عملهم بأجر منتظمين في صفوف تحت إشراف "رَئِيس" اللُطْعَة (نسبة إلى لُطَع الدودة) وكنت أتمنى العمل معهم بعد أن ذهبوا لعملهم وتركوني وحيداً بدون رفاق ألعب معهم، لكن هيهات لإبن "الأستاذ" أن يعمل في مهنة أبناء الفلاحين.

الجبنة القديمة والمش كانا من أهم مكونات الطعام في قريتنا. هذا بالإضافة إلى الفلفل الأخضر المقلي والباذنجان المقلي والبصارة والعدس. كان الناس في ذلك الوقت يتبعون ساعتهم البيولوجية فكانوا يستيقظون قبل شروق الشمس يتناولون ما تيسر من طعام، عادةً بقايا عشاء الأمس، أو كوباً من الشاي بالحليب، إن تيسر، مع الفايش. بعد الإفطار يصطحب أبناء قريتنا حيواناتهم المنزلية، عادةً الجاموسة، ويذهبون للعمل في الحقول حتى الظهيرة حيث يأتيهم الغذاء من البيت مع الزوجة أو أحد الأبناء في طبق من الصاج، وهو عادة قطعة من الجبن القديم والمش والخبز الشمسي وأحيانا البصل. وقد يتم تطعيم الوجبة ببعض الخضرة من الحقل كلما تيسر ذلك.

قبل المغرب بقليل يعود البشر ومعهم دوابّهم إلي بيوتهم. وجبة العشاء، الوجبة الأخيرة تكون عادة بعد غروب الشمس مباشرة وتكون في معظم الأيام، عدا الخميس، بدون "زَفَر،" يُتبِعها الكبار عادة بكوب من الشاي المغلي ثم يسدل

الليل أستاره على الجميع، عادة بعد صلاة العشاء ليعاودوا الكرّة قبل شروق الشمس بقليل.

كان من عادة الغالبية العظمى من الناس في ذلك الوقت أن يتناولوا الطعام عند مداخل بيوتهم، داخل أو خارج البيت، حتى يكون الطعام متاحاً للمارّة على الرغم من شُحِّه. فكل شخص عابر، في العادة من الأقارب أو الجيران، يمكنه أن يتناول الطعام مع أي أسرة أخرى. كنت، وأختي أماني، نحب طعام أسرة عمي عسران وعمتي تفيدة، وعلى الرغم من أن أمي كانت تحرص على أن تُدخِلَنا البيت قبل أن تنصُبَ عمتي تفيدة طبليّتها أمام بيتها، وعلى الرغم من وجودِ طعامٍ أفضل وأكثر تنوعاً عادة في بيتنا، إلا أننا كنا نتلكّأ في العودة للبيت رَغَبا في أن نشارك أسرة عمتي طعامهم البسيط وأن نتحلّق حول الطبلية مع زايد ونحوي وهيبة ومحمد وحسن وعم عسران وعمتي تفيدة. كانت لُقمةً هنيّة أكادُ أستشعرُ طعمَها الطيب في فمي حتى الآن.

13
عيش وملح

كان الخبز الشمسي أول نوع من الخبز أجده على مائدة الأسرة، هذا الخبز الذى لا تحلو الملوخية الخضراء والبامية الصعيدي (الوِيكَة) بدونه. بين الزيارات التي تأتيني من الصعيد، بما فيها البيض والدجاج البلدي والديوك والسمنة البلدي والحمام والقشدة، لا أفتش إلا عن هذا النوع من الخبز، الخبز الشمسي. وأتصور أن هذا الخبز الذي يشيع إستخدامه في صعيد مصر ما هو إلا إمتداد لنفس الخبز الذي كان يستخدمه أجدادنا الفراعنة، وأذكر أنني شاهدت بالمتحف المصري بالقاهرة رغيفا من الخبز الفرعوني بنفس حجم ولون وشكل وإنتفاخ الخبز الشمسي تماماً، مع إختلافٍ وحيد وهو أن الرغيف الفرعوني كان مثلثا وليس مستديرا كالرغيف الشمسي الذي تربيت عليه.

كان الناس في قريتنا لا يستشعرون الشبع بدون تناول الخبز مع الطعام حتى أنك تجد الخبز على المائدة بجوار الأرز، حيث كان من المعتاد أن تجد طبق الأرز على المائدة وكأنه طبق إضافي، وليس بديلاً عن الخبز كما في المدينة. كما كان يندر أن تجد كسرة خبزٍ ملقاة في الطريق، وإذا وجدها أحدهم فعليه أن يضعها بجوار الحائط أو في أحد الشقوق لأنها "بَرَكة" وإلقائها في عرض الشارع يُعَدُ إهانةً للنعمة التي أنعم الله علينا بها، ونكران الفضل قد يؤدي إلى زواله.

لم تكن لدينا مشكلة في التخلصِ من المخلّفات لسببين، السبب الأول أنه لم تكن هناك مخلفات ولا فائض في الطعام لكي نتخلص منه، وإن كان هناك فائض فهو لا محالة من نصيب الدواجن التي تعيش معنا. لم يكن بعضها صبوراً حتى نهبه بقايا طعامنا وكانت الدواجن تغافلنا في كثير من الأحيان وتقتحم موائدنا بلا إستئذان؛ وإن كانت في النهاية تستقر في جوفنا هي وما أخذته بدون إستئذان.

السبب الثاني في عدم وجود مشكلة في التخلص من المخلفات أن كميه المخلفات، بخلاف مخلفات الطعام، كانت قليلة جداً وقابلة للذوبان في التربة أو الحرق في الأفران كوقود. لم تكن قد ظهرت في عالمنا أكياس البلاستيك ولا علب اللبن الزبادي ولا أكياس البطاطس المقرمشة، ولا حتى أكياس السكر. كان من عادة أبناء قريتي عندما يصرفوا حصصهم التموينية من دُكّان عمي ثابت أو من أي بقّال تمويني آخر أن يأتوا هم بأكياسهم المصنوعة من القماش للحصول على مستحقاتهم. كانوا كذلك يفعلون بالنسبة للأطعمة السائبة مثل الفول المدمس والفول النابت، حيث يقع على عاتقهم، وليس على عاتق البائع، توفير الأوعية.

أضف إلى ذلك أن الفاكهة في ذلك الوقت كانت تُباع، لمن يقدر على ثمنها، في قراطيس من ورق الجرائد أو في أكياس مصنوعة من ورق شكائر الأسمنت المستعملة؛ دون التخلص في الغالب مما كان يعْلق بها من تراب الأسمنت.

بالنسبة للتسالي، وهي من الرفاهيات، كانت تباع في قراطيسها التقليدية المصنوعة من كُتُب المدارس المستعملة.

كان أبناء قريتي، بالمفهوم العصري، يعيدون إستخدام كل شيء، حيث كانوا يستخدمون الورق كوقود في أفران صنع الخبز، أما علب الحلاوة الطحينية التي كانت من الصفيح فكانت عادة تحل محل الملّاحة على المائدة – الطبلية – حيث كانت تُعبأ بالملح المحوّج بالكمون والشطة ولا تخلو "طبلية" منها. أما العلب الفارغة للسالمون، على ندرتها، فكانت تستخدم أكوابا – أكوازا، جمع كوز – للمياه فوق الأزيار. زجاجات الخمر الفارغة، التي لم أكن أعلم مصدرها، كانت تُستخدم لحفظ الجاز – الكيروسين – لزوم تعبئة لمبة الجاز.

14
سِنْجَر

إرتبطت طفولتي بمنظومةٍ متكاملة من الأصوات الطبيعية والصناعية. من الأصوات الطبيعية التي إرتبطت بطفولتي صياح الدِيّكة في الصباح الباكر، ونقنقة الدجاج، وهديل الحمام، ونَقِيق الضفادع، وحفيف الأشجار، ونهيق الحَمِير، وهدير الجِمَال، وخُوَّار البقر، وثُغَّاء الغنم والماعز، وخَرير الماء. من أهم الأصوات الطبيعية التي لا أنساها أيضا صوت "عمِ عسران" الجَهُورِيّ في مدخل منطقتنا السكنيه وهو يُزمجِر غاضباً معنِفاً أحد أبنائه أو أحد أبناء المنطقة. لقد كان صوت "عمِ عسران" الجَهُورِيّ هذا جزءا لا يتجزأ من "موزاييك" أصوات الطفولة.

من الأصوات الصناعية التي إرتبطت بطفولتي صوت "الطَنبُور"– البدالة – الذي كان يُستخدم لرفع الماء من الترعة للحقول وكان يُدار يدوياً قبل أن تحل محله ماكينة المياه التي تعمل بالسولار، التي دخلت القرية بعد رحيلي عنها بسنواتٍ عديدة. كان صوت "وابور الجاز" من الأصوات المعتادة في منزلنا خصوصاً في المساء ونحن بإنتظار وجبة العشاء. كنا نستخدم وابور الجاز في التدفئة في ليالي الشتاء الباردة، وكثيرا ما كان يداهمَني النوم على صوت وابور الجاز.

من الذكريات التي لا أنساها مع وابور الجاز أنه عندما قررت الأسرة تختيني، وكنت في الصف الرابع الإبتدائي، أحضر أبي ممرضاً من المدينة ليقوم بهذه العملية التي كان يقوم بها عادة "عمِ كمال الفولي" حلاق القرية. حضر الممرض وحملتني عمتي تفيدة على حجرها بينما شَلَّ إبن عمتي صفوت حركتي ليقوم الممرض بعمله في باحة البيت في الطابق السفلي من المنزل. لم تتحمل أمي صراخي في تلك المناسبة "السعيدة" وعلمت بعد ذلك أنها كانت في الطابق العلوي جالسة، أو ربما واقفة، بجوار وابور الجاز بعد أن أشعلته لكي يغطي صوته علي صوت صراخي في الطابق السفلي. أذكر أن مناسبة تختيني كانت المرة الأولى التي أرتدي فيها جلباباً، وأعتقد أنها كانت المرة الأخيرة أيضاً. كان من المعتاد أن يرتدي الطفل المخَتَن جلباباً أبيضاً.

الصوت الصناعي الآخر الذي إرتبط بذكريات الطفولة كان صوت ماكينة الحياكة الخاصة بأمي، وكانت من الماركة الشهيرة وربما الوحيدة في ذلك الوقت ماركة "سنجر" هندية الصنع. أعتقد أن ماكينة الحياكة كانت جزءً من جهاز أمي. كانت ماكينة الحياكة من النوع اليدوي بالطبع ولكنها كانت ذات قاعدة خشبية قَيِّمة، وكان من المعتاد أن أرى أمي جالسةً خلفها على مقعدٍ خشبيٍ مثل الذي كان يستخدم في المقاهي الشعبية في ذلك الوقت. إرتباط أمي بالحياكة لم يكن لزيادة موارد الأسرة أو للعمل التجاري بقدر ما كان بسبب خلفية أمي التعليمية، فقد كانت الحياكة جزءً من تعليمها.

ماكينة الحياكة كانت عنصراً جاذباً لي ولأختي أماني حيث كان أبي –عندما يعود من معيّة أصدقائه في المساء بعد أن نكون قد خلدنا للنوم– يضع حبتين من الحلوى على سطح طاولة الماكينة، فكنا نستيقظ في الصباح الباكر لكي نتناول تلك الحلوى.

15
لِعب عيال

ألعابنا في بلدتنا كانت طبيعية ومتواضعة وجماعية في غالبها. كنا نلهو ونمرح في الحقول بين الخضرة وتحت ظلال النخيل والأشجار. لم تكن حياتنا بالصورة الرومانسية التي قد تستدعيها لدى القارئ العبارة السابقة. فكانت مراجيحنا — على سبيل المثال — قطعة من الحبال تتدلى من أغصان الأشجار، وكان صلصالنا من الطين الطبيعي، الذي لابد مخلوطا بقواقع البلهارسيا. كانت إبتكاراتنا من الطين على قدر خبرتنا في الحياة؛ نُحاكي بالطين ما نراه في واقعنا المعاش. كنا نصنع من الطين آنية تشبه الآنية الفخارية، بلاليص وأزيار وقُلَّل. كنا أحيانا نصنع من الطين بعض التماثيل وندسها خلسة في أفران الخبيز حتى تحترق ويتحول لونها للون الأحمر الوردي فلا يُذيبها الماء.

لم أكن يوما مغرماً بلعب اللعبة الشعبية الأولى في العالم، كرة القدم، ولم أحرص في حياتي على متابعتها لكنني كنت ألعبها أحيانا كنوعٍ من المشاركة، وكنت أفضل الوقوف كحارس مَرمَى، أقل اللاعبين حركة. على الرغم من ذلك كنت أشارك في صنع الكرة الشراب — غطاءها الخارجي مصنوع من جورب قديم إتخذت منه إسمها الشائع. كان مَن هُم أكبر مني سناً يذهبون للَّعِب في ملعب مركز الشباب بالوحدة المجمّعة بالقرية الذي هو ذاته حوش — فناء — مدرسة

الوحدة المجمّعة الإبتدائية المشتركة. على الرغم من ذلك عندما أُتِيحَت ليَّ فرصة شراء كرة كَفَر – كرة معيارية مصنوعة من الجلد – إشتريتها في ليبيا بلا تردد.

الألعاب الأخرى التي كنا نلعبها لم تكن تخرج عن نطاق الألعاب التي كانت معروفة في الريف المصري آنذاك؛ مثل لعبة الإستُغُمَّايَّة الشهيرة، وقِصّ الحكايات، الخرافية غالباً، عن أُمّنا الغولة والجن والعفاريت، وكذلك تسلق النخيل والأشجار كما ذكرت سابقاً. كان من النادر أن تتيسّر لنا أوراق اللعب لكي نلعب معا البَصْرة ولعبة الشايب.

كنا أيضا نتابع الكبار وهم يلعبون لعبتهم المفضلة، "السِيجَة". كان الكبار، خاصة عم أحمد جوهر وعم عسران يلعبون السيجة أمام منزل عم عسران، حيث يفترشون الأرض ويعدّون الملعب بتجهيز الحصي المستخدم في اللعب والذي يسمونه "الكلاب" ذات اللونين، قسم بلون الطوب النيّء (رمادي) وقسم آخر بلون الطوب المحروق (وردي) ثم يبدأون بأكل كلاب بعضهم البعض. كان الكبار أيضا يلعبون "الدومينو" على المقاهي، كما كانت قلة قليلة منهم تلعب الطاولة.

16
السباحة والبلهارسيا

كانت أمّي، رحمها الله، تحذّرني من الإستحمام في الترعة مع أقراني، ليس خوفاً من الغرق فقط، ولكن الأهم هو عدم إصابتي من البلهارسيا. لم يكن قد ظهر بعد الإعلان الشهير للفنان محمد رضا والفنان عبد السلام محمد الذي يقول فيه الفنان محمد رضا "طول ما نِدّي ضهرنا للترعة، عمر البلهارسيا في جِتتنا ما ترعى." على الرغم من ذلك لم أكن أستطيع مقاومة إغراء الأقران الذين لا تُحذّرهم أمهاتهم من النزول للترعة. كنت أخلع ملابسي وأضعها علي الشاطئ كما يفعل الرفاق وأنزل معهم للإستحمام في الترعة. عادة كان رفاقي هم أنفسهم من يبلغون أمي أنني نزلت معهم للإستحمام في الترعة وينتهي الأمر بعلقة أو توبيخ أو حرمان من مِزْيِةٍ ما.

خلاصة الأمر أنني لم أتعلم السباحة، وهو أمر أشعر بالندم عليه حتى الآن. الرفاق، بدون محاذير، إستطاعوا جميعاً تَعَلُّم السباحة حتى أصبحوا بعد سنوات قليلة يستطيعون السباحة في الترعة الكبيرة. على الرغم من عدم إستفادتي من نزول الترعة إلا أنني أصبت مما كانت تحذِرُني منه أمي، أصبت بالبلهارسيا. أذكر أن العلاج من البلهارسيا في ذلك الوقت – أوائل السبعينات – كان بالحقن في الوحدة الصحية. أذكر أن زميلي عزت في الصف السادس الإبتدائي كان دائم الإستئذان من المعلم للذهاب للوحدة الصحية لأخذ الحقنة.

بالمناسبة، كانت الحقن في ذلك الوقت من النوع الذي يعاد إستخدامه بعد غَليّ الحقنة والإبرة. ويقولون أن إنتشار العلاج من البلهارسيا بهذه الطريقة هو ما أدى إلى إنتشار أمراض الكبد (فيروس C) بين المصريين. من حسن حظي أن إصابتي بالبلهارسيا قد تم إكتشافها مبكراً، وربما من حسن حظي أيضا أنني لم أُعالج بتلك الحقن. أذكر أن أبي، رحِمَهُ الله، أخذني لمستشفي المعلمين بالجزيرة لإجراء الفحوص اللازمة، وأذكر أنه كان من بين هذه الفحوص إجراء أشعة بالصبغة. الخلاصة أنني عولجت بأول جيل من أجيال حبوب علاج البلهارسيا وكنت، على ما أذكر، أتناول جرعة من تلك الحبوب كل أسبوع. بعد أخذ حبة الدواء كنت أشعر بالدوار وعدم القدرة على الحركة طوال النهار. الخلاصة أنني شُفِيتُ من البلهارسيا والحمد لله.

17
شِقّ النصارى

كانت هناك حضانة بالوحدة المجمعة بالقرية، وكنت أحد روادها. أذكر أن أمي إتفقت مع إحدى العاملات في الحضانة أن تأخذني كل يوم من البيت وتعيدني إليه بعد إنتهاء ساعات الحضانة. أذكر أنها كانت سيدة كبيرة السن باسمة الوجه تسكن في "شِق النصارى،" مكان سُكنى المسيحيين البحريين، أي المسيحيين الشماليين الذين كان يعمل أغلبهم في التجارة، تمييزاً لهم عن المسيحيين القبليين، أي المسيحيين الذين يسكنون "قبلي البلد"، أي جنوبها، وكانوا أقل من المسيحيين البحريين من الناحية الإقتصادية.

بمناسبة ذكر المسيحيين في بلدتنا كان زملاؤنا من المسيحيين من أفضل الطلاب بالنسبة لآدائهم الدراسي لدرجة كانت في بعض الأحيان تثير حفيظة بعض المسلمين. إذ كيف لهؤلاء المسيحيين أن يكونوا أفضل من المسلمين. بالرغم من أنه لم تحدث أية أحداث فتنةٍ طائفية أو تفرقةٍ بين المسلمين والمسيحيين في بلدتي حتى غادرتها بعد أن أتممت مرحلة الدراسة الإبتدائية، إلا أن ذلك لا يمنع أنني قد بدأت سماع حوارات التفرقة العنصرية في تلك المرحلة المبكرة من حياتي، قبل أن تتحول تلك الحوارات إلى فتنة طائفية على مستوى الوطن في وقتٍ لاحق.

من ضمن الحوارات الطائفية التي كنت أسمعها من أحد كبار الأسرة أن عائلتنا تنحدر من أصول عربية وأنه في الماضي القريب، وليس البعيد، كان لدى عائلتنا عائلة مسيحية "تخدمها" وتحتمي بها. سمعت أيضاً في هذا الوقت المبكر العبارات المعتادة على شاكلة أن "النصارى" لا يستحمون، وأن بهم نَجَس، وأنهم كفار ولا يصومون ولا يُصلّون —مثلنا — وأنهم "مِزَّيتِين،" أي أن بهم رائحة الزيت من كثرة أكل الطعام بالزيت، وأن المسلم بالتأكيد أفضل من النصراني. لم نكن نعرف أو نتخيل أن هناك صوم غير صوم رمضان — الصوم الإنقطاعي — ولم نكن نعرف أن المسيحيين يصومون عن الأطعمة غير النباتية أو أنهم يأكلون بالزيت في أيام الصيام. لم نكن نعرف أيضا أنه لا علاقة للأكل بالزيت بالنظافة أو عدم النظافة.

كان إبن القسيس تلميذاً عند أبي في المدرسة الإعدادية، وكان تلميذاً مجتهداً ومهذباً. أعتقد أن إسمه كان صمويل. كان ظهور القسيس في الطريق من مدخل موقف القرية إلي بيته المجاور للكنيسة مثيرا للتعليقات وربما السخرية. أذكر أن الأطفال كانوا يسيرون خلفه، يزُفُونَه، مرددين العبارة الشهيرة عديمة المعنى "كَلِّل كَلِّل يا قسيس ... كُلّ ملوخية وعيش مافيش." على الرغم من ذلك، كان المسيحيون في قريتنا تجاراً ماهرين. أذكر منهم فاروق خزام، إبن عم خزام صاحب مخزن الجاز المجاور لبيوتنا. كان على الرغم من ثرائه، يرتدي دائما جلباباً منقوعاً في الجاز بعربة الجاز التي يجُرُها الحمار. من ألطف الشخصيات المسيحية التي كنت أراها في طفولتي عم إبراهيم البيّاض. كان عم إبراهيم البيّاض يمتطي ظهرَ حمارة الذي وضع عليه قفصين كبيرين وينتقل من منزل

لآخر لجمع البيض البلدي – لم نكن نعرف وقتها أن إسمه "بلدي" أو أن هناك نوع آخر من البيض غيره – وكان لديه حساب لكل سيدة يشتري منها. كان عم إبراهيم يشتري البيض، أحيانا، أو يقايضه بسلع بدائية، ملابس أو أوعية.

شِق النصارى كان يقع بجوار الشارع الرئيسي بالقرية وكان به بيت فاروق خزام، لمن يرغب أن يشتري الجاز وكان به أيضاً مجموعة من الدكاكين كان معظمها مخصص لبيع الأقمشة والأدوات المنزلية. كان به أيضا دكان "عمِ زكي الباكي"، كنت أشتري منه الحلوى والعملات المعدنية القديمة. كان أبي، رحمه الله، على علاقة طيبة بنصارى قريتنا وتلاميذها. كان له من خارجها صديق عزيز يسكن في سوهاج إسمه الأستاذ "قوسة". أعتقد أن الأستاذ قوسة قد عمل في المدرسة الإعدادية مدرساً لمادة الرياضيات. أذكر أيضا أننا زرنا الأستاذ قوسة في منزلة بشارع الملجأ بمدينة سوهاج.

18

مدرستي

لا أذكر حكايات كثيرة حول المدرسة الإبتدائية على الرغم من أنني درست في ثلاثة مدارس في المرحلة الإبتدائية فقط. عرفت عندما كبرت أنني دخلت المدرسة الإبتدائية وعمري خمسِ سنوات، أقل من أقراني بعامٍ كامل. قيل لي فيما بعد أن هذه المزية بسبب عمل والدي كمدرس. دخلت المدرسة الإبتدائية المشتركة، وكانت بجوار الجسر الغربي، الذي كان يستخدم كحاجز لصد مياه الفيضان عن القرية قبل بناء السد العالي. كانت المدرسة تقع أيضا بجوار طاحونة البلدة وبجوار منطقة سكن النصارى القبليين.

أذكر أن بلدتنا في هذا الوقت، لم تكن بعد قادرة على توفير المعلمين من أبناء القرية لمدرستيها الإبتدائيتين، فكان لدينا بعض المدرسين من خارج القرية. أذكر منهم الأستاذ عزام الذي كان يأتي من قرية مجاورة تنتمي إليها عائلة جدتي لأمي. أعتقد أن ناظر المدرسة أيضاً كان من نفس القرية التي ينتمي إليها الأستاذ عزام. كانت المدرسة عبارة عن بيت يقال أن السيدة التي كانت تسكنه ماتت محروقة، وكنا نخاف البقاء في الفصول منفردين أو التجول في المدرسة بسبب تلك الشائعة. لم يكن لمدرستنا فناء بداخلها. كان الفناء خارج المدرسة في منطقة ذات سياج قصير من الطين.

بعد إنتهاء الصف الرابع الإبتدائي تم إغلاق المدرسة لكونها آيلة للسقوط، فإنتقلنا إلى مدرسة الوحدة المجمعة الإبتدائية، وكانت عبارة عن فصول متباعدة عن بعضها منثورة بشكل منتظم في مساحة كبيرة أمامها فناء كبير، هو ذاته ملعب مركز شباب القرية. بعد عام من الدراسة في مدرسة الوحدة المجمّعة إنتقلنا الي المدرسة المشتركة في مبناها الجديد بجوار مستشفى الحُميات، وكان عبارة عن مجموعة فصول في الدور الأرضي لم يستكمل "تشطيب" العديد منها. أذكر أن بعض فصولها كانت غير مسقوفة. كانت المدرسة بعيدة، إلي حد ما، مقارنة بمدرستنا القديمة. كنا في الصف السادس الإبتدائي وكان هذا يعني نهاية مرحلة دراسية هامة حيث كان بنهايتها يحصل التلميذ على "شهادة إتمام الدراسة الإبتدائية."

كانت الكتب الخارجية، أي الكتب التي تشرح كتب المدرسة، تبدأ في الصف السادس الإبتدائي. بخلاف الكتب الخارجية حالياً، كان كتاب "سلاح التلميذ" كتاباً في كل المواد وليس في مادة واحدة فقط، وكان رديء الطباعة مقارنةً بمباهجها الآن، حيث كانت الكتابة في كافة صفحات الكتاب بلون واحد هو اللون الأسود، وكان غلافة فقط باللون الأصفر. لم يكن بمقدور العديد من زملائي في ذلك الوقت شراء كتاب سلاح التلميذ. لحسن الحظ أن المناهج في ذلك الوقت لم تكن تتغير بإستمرار كما يحدث الآن مما كان يتيح للتلاميذ أن يستخدموا نسخاً مستعملةً من كتاب سلاح التلميذ.

بما أنني كنت من بين القلة القليلة من التلاميذ الذين تقتني أسرتهم راديو، بالإضافة إلي أن أمي كانت متعلمة، تم إختياري ضمن فريق الإذاعة المدرسية لتقديم نشرة الأخبار. كانت أمي تستمع إلى نشرة الأخبار، أو ربما موجز الأخبار، في السابعة صباحاً من خلال إذاعة البرنامج العام، ثم تكتب بسرعة ما يقوله مقدم النشرة ثم تقدم الورقة لي لكي أكتبها مرةً أخرى بهدوء وبخط أستطيع قراءته على زملائي التلاميذ في طابور الصباح.

19
الحلزونة

لم تكن الغالبية العظمي من سكان بلدتنا قد أتيح لها مجرد الخروج من القرية، وكانت نسبة كبيرة من أبناء بلدتنا يولدون ويعيشون حياتهم ويرحلون عن عالمنا دون أن يخرجوا منها. لذلك لم تكن هناك حاجة لوسائل المواصلات. كان الناس معتادين على المشي، حفاةً أحيانا، ولمسافات طويلة من أول القرية إلى آخرها أو إلى النجوع المجاورة. حتى موتانا كنا نودعهم لمثواهم الأخير في القرية المجاورة – كانت جزءً من قريتنا – تحت سفح الجبل الشرقي محمولين على الأكتاف لمسافة تقدر بحوالي ثلاثة كيلومترات. كما كنا نذهب لزيارة موتانا في الأعياد حاملين معنا بعض المخبوزات والفاكهة سيراً على الأقدام أيضاً.

زيارة الموتى في الأعياد لم تكن رفاهةً أو إختياراً، حيث كان معظم سكان القرية يشدون الرِحال لعيادة موتاهم قبل طلوع الشمس وقبل أن يزوروا أقاربهم الأحياء لتهنئتهم بالعيد. بالرغم من ذلك، كانت زيارة الموتى في العيد، على ما أذكر، زيارةً إحتفاليةً إلى حد كبير.

قبل أن تظهر الموتوسيكلات الصيني والتكاتك (جمع توك توك)، كانت وسيلة المواصلات الرئيسية داخل القرية، وفي كثيرٍ من الأحيان للنجوع والقري المجاورة، هي الحمير. كان للحمير سوقاً رائجة، وكان لقَصاص (حَلَّاق) الحمير عملاً

دائما في القرية. بالإضافة للحمير، كان هناك عدداً لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة من "الأفندية" الذين يمتلكون الدرّاجات.

علاقة قريتي بالعالم كانت تنتهي عادة قبل الثالثة عصراً. كانت المواصلات العامة تكاد تكون منعدمة، حيث كان يخدم القرية ويربطها بعاصمة المحافظة — حوالي ١٢ كيلومتر — والمركز الإداري الذي لم يكن يختلف كثراً عن قريتنا — حوالي سبعة كيلومترات — سوى أوتوبيس عام واحد كنا نسميه "الحلزونة." كان الأطفال يخرجون من بيوتهم لمشاهدته وهو يمشي الهُوَيْنا على الجسر الترابي بمحازاة الترعة. بخلاف الأتوبيس، لم نكن نرى سوى السيارات الروسي ذات اللون الأخضر الجنزاري التي كان يمتلكها ويديرها أبناء مدينة أخميم. أذكر أن واحدة منها كانت ذات أبواب خشبية، وكان لهذه السيارات رَفرَف كبير في جنبيها، يكتظ صباحا وبعد الدوام بالمرفرفين الذين يعبث الهواء بجلاليبهم الفضفاضة.

على الرغم من تعيين وزارة الري في ذلك الوقت لموظفين كان يطلق عليهم "البخاخين" الذين كانت مهمتهم تعبئة الماء من الترعة المجاورة في جرادل من الصاج وبخّها — رشها- على الطريق لتثبيت التراب، إلا أن مفعول تلك العملية — خاصة في حر الصيف — لم يكن يستمر لأكثر من سويعات قليلة تبدأ بعدها سُحُب الغبار في الإرتفاع خلف كل سيارة مارَّة على الطريق. في الحقيقة كانت قريتي تتعايش إلى حد كبير مع سحب الغبار ولا تجد فيه غضاضة كبيرة.

كانت المسافات، رغم قربها، بعيدة. أذكر أننا عندما كنا نسافر للقاهرة بالقطار الذي كان يغادر سوهاج في الرابعة إلا ثلث صباحاً كنا نبيت في سوهاج لكي نلحق بالقطار. كنا نبيت عند أسرة السيد بكر العماري، أحد الجيران القدامى لجدي الشيخ حسن شهاب عندما كان مقيما في مدينة سوهاج. في السنوات الأخيرة من إقامتنا في الصعيد كنا نقيم في لوكاندة "جراند أوتيل" أو لوكاندة الخديوية اللتانِ تُطِلانِ على ميدان المحطة.

أذكر أيضا أن طلبة وطالبات مدرسة المعلمين والمدارس الثانوية العامة والفنية كانوا يشدون الرحال لمدينة سوهاج يوم الجمعة حاملين أسْبتة – جمع سَبَت – محشوة بالخبز الشمسي والجبنة القديمة والجبن القريش – أحيانا – للإقامة في القسم الداخلى بمدارسهم أو في مساكن متواضعة مخصصة للطلاب المغتربين، ثم لا يعودوا الى قريتنا إلا في نهاية الأسبوع الدراسي.

20
قطار الصعيد

عندما أستمع الى أغنية الفنان القدير محمد عبد الوهاب التي يقول فيها "يا وابور قول لي رايح على فين" – الوابور هو الاسم الذي كان يطلقه المصريون على القطار – تعود بي ذاكرتي إلى أيام الصبا، حيث كانت محطة القطار في سوهاج هي الباب الملكي لدخول المحروسة، قاهرة المعِزّ، حيث يكون خالي علِي بإنتظارنا دائما في "باب الحديد،" الإسم الذي كانت تشتهر به محطة القطارات الرئيسية بالقاهرة؛ بعد أن يكون أبي قد أرسل برقية لأسرة أمي بالقاهرة بموعد وصولنا. كان الأهل يتوافدون لوداعنا ليلة السفر مع دعواتهم لنا بالذهاب والعودة سالمين غانمين وكأننا ذاهبون إلى المجهول. وربما يكون لهم العذر في ذلك، حيث أن نسبة كبيرة من سكان قريتنا في ذلك الوقت لم يكونوا قد غادروا البلدة منذ ولادتهم.

كانت القطارات في ذلك الوقت هي وسيلة المواصلات الرئيسية بين سوهاج (وكذا محافظات الصعيد الاخرى) والقاهرة، وكانت القطارات نوعان: القطارات العادية والقطارات المكيّفة؛ وكانت الأخيرة تقتصر في الغالب على الموظفين والأعيان، بينما كانت القطارات العادية للفئات الأخرى من المجتمع، وكان يندر أن ترى خلطا بين هاتين الفئتين. إحتفظت القطارات بهيبتها حتى ظهرت سيارات الأجرة من ماركة "بيجو ٥٠٤" التي تتسع لسبعة من الركاب والتى

زادت أهميتها في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات كوسيلة إنتقال بين المحافظات المختلفة والقاهرة، وزاد عددها وأصبحت وسيلة موازية تنافس القطارات مع التوسع في تعبيد الطرق الفرعية المؤدية إلى القري والنجوع، ومع تزايد أعداد المصريين الذين يذهبون للعمل في ليبيا وينهون رحلةِ عملهم بإصطحاب عربة بيجو صندوق 7 راكب. . ومع إزدياد حركة الركاب التي تزامنت مع الزيادة السكانية وتلاشي المسافة بين الريف والحضر أصبحت هذه السيارات تعمل خارج مواقف سيارات الاقاليم التي تتواجد عادة في عواصم المحافظات والمراكز الكبري. ثم بدأت بعد ذلك مرحلة جديدة من نشاط هذه السيارات للعمل من خلال أسلوب ما يمكن أن يُسمَّى "توصيل الطلبات للمنازل" أو أسلوب "من الباب للباب"؛ حيث تبدأ هذه السيارات رحلتها من إحدى القرى في صعيد مصر إلى إحدى الضواحي أو الاحياء العشوائية التي تتركز فيها غالبية المهاجرين من هذه القرية أو تلك بالقاهرة، ويقوم السائق بتوصيل العملاء إلى منازلهم في العاصمة.

وعلى الرغم من أن هذا النمط الجديد من وسائل النقل قد إجتذب شريحةً كبيرة ممن كانوا يعتمدون كلّية على القطارات – وخصوصا بعد إنشاء الطريق الشرقي الذي يبدا من الكريمات جنوب حلوان وكذلك الطريق الغربي الموازي للطريق الزراعي القديم والذي يبدأ من طريق الفيوم خلف منطقة الأهرام الأثرية–، وعلى الرغم من إستخدام سيارات أكثر حداثةً من سيارات البيجو القديمة (الميكروباص)، إلا أنه نظراً لإرتفاع تكلفة هذه الخدمة فإن الطبقات

الأشد فقراً ظلت على تمسكها بالسفر بالقطارات العادية مع ما أصابها من تدهور.

إرتبطت القطارات في ذاكرة الشعب المصري بالسفر وفراق الأحباب –ولقاءهم أيضا–، وظهر ذلك في الاعمال السينمائية المصرية مثل فيلم "رصيف نمرة خمسة" للمخرج يوسف شاهين، وغنى لها كبار المطربين والمطربات مثل الأغنية الشهيرة للفنانة عفاف راضي "يا وابور الساعة ١٢" والتي غناها أيضا الفنان إيمان البحر درويش، كما لا ننسي أغنية الفنان محمد عبد الوهاب كلمات الشاعر أحمد رامي والتي غناها عبد الوهاب في فيلم "يحيا الحب" عام ١٩٣٧ "يا وابور قول لي رايح على فين" ثم يستفيض عبد الوهاب في وصف وابوره (قطاره) الذي يجري قبلي وبحري يطلع وادي وينزل كوبري يقرب حبيباً ويبعد حبيبا آخر، ويجمع شمل الأحبّة ويفرقهم. وقد كانت محطة القطار في كل محافظة ومدينة وقرية هي بوابتها التي تصلها بالعالم الخارجي، والتى تعد مركز العمران وبوابة الحياة، فمن خلالها يأتي الأحباب وتأتي البضائع (الطرود) والبريد والجرائد اليومية.

مع إزدياد الحراك البشري والتكدس السكانى فقد القطار رومانسيته وأصبح السفر بالقطار "شَرٌ لا بُدَّ منه" وأصبح في غالبه وسيلة المواصلات التي تستخدمها الطبقات الفقيرة في المجتمع – بإستثناء قطارات النوم والقطارات المكيفة. إلا أن ذكريات القطار لا تفارق مخيلتي كلما عدت لتذكر تلك الحقبة من عمري.

21
المحروسة

بمجرد أن ينتهي العام الدراسي كُنّا نستعد للسفر للقاهرة. كانت أمي تعد كميات كبيرة من فطيرة "أُمّ الشعور" التي يحبها أهلها في القاهرة، بالإضافة إلي الخبز الشمسي والفايش، والفطير المشلتت الصعيدي الغارق في السمن البلدي، بالإضافة إلي البيض البلدي والحمام والدجاج البلدي والأوز والبط؛ بكميات تكفي لبيت جدي وأخوالي المتزوجين. كان الجيران يساعدونها في إعداد المخبوزات وتجهيز الطيور وكانت بنات عماتى "صفيه" الكبار يساعدنها في هذه المهمة أيضا.

كنا نجد خالي الأصغر "عَلِيّ" بإنتظارنا في محطة السكة الحديد، وكان يصعد للقطار ليساعدنا في إنزال أمتعتِنا، ثم نعهد بها إلى أحد الشيالين لنقلها خارج المحطة الأنيقة، أو ربما التي كانت أنيقة في تلك الأيام، بنافورتها الشهيرة التي يطل عليها تمثال الفرعون العظيم رمسيس الثاني قبل أن أن يغادر ميدانه ليستقر به المقام في المتحف المصري الكبير بالجيزة. بعد الفصال المعتاد مع سائق التاكسي، ننطلق إلى حي السيدة زينب حيث بيت جدي الذي كنا نقضي فيه معظم أيام العطلة المدرسية الصيفية.

يتيح لنا وجودنا في القاهرة أن نظل بالقرب من أسرة أمي، خاصة أن أخوالنا كانوا قد قطعوا تقريبا صلتهم بالبلد، لا يزورها أحدهم عادة إلا لتقديم واجب العزاء فى قريب قد رحل عن دنيانا. أذكر أن خالي علِي زارنا مرة، ربما لآداء واجب العزاء في أحد الراحلين وبات ليلةً في بيتنا، ومن خوفه من لدغ العقارب – التي لا تمر ليلة دون أن نسمع عن أحد ملدوغيها –، أصر على أن ينام حتى الصباح دون أن يخلع حذائه. من طرائف هذه الزيارة أيضاً أنه شاهد إبن عمتي "زايد" يلعب أمام منزله عارياً تماما وكان عمره وقتها خمسة أو ستة سنوات، فكان كلما ذهبنا للقاهرة في الصيف يسألنا عن زايد وإذا ما كان مازال عارياً أم لا.

أتاحت لي الإقامة في القاهرة في العطلة الصيفية أن أكون، ولو لفترة مؤقتة، في عالم يمتلئ بالحيوية والحركة، بخلاف جو البلد الهادئ ربما لدرجة الركود. إقتربت أكثر من أبناء أخوالي، خاصة خالد إبن خالي عبد الله حيث كنا نلعب الشطرنج معا. كان خالد مغرماً بأفلام الكاراتيه وكنا نذهب معا لمشاهدة "أفلام بروس لي" في سينيمات السيدة زينب، الهلال والأهلي وسنيما إيزيس في شارع قدري. كان وجودي في القاهرة فرصة لكي أشتري مجلة سمير صباح كل أحد، ومجلة ميكي صباح كل خميس من عم خميس بائع الجرائد الذي كان يفترش ناصيتي شارعي الخليج والوافدية. كان ذلك يتطلب مني أن أعبر شارع الترومواي (شارع الترام) وكانت جدتي تحذرني تحذيرا شديداً من عبور شارع الترام نظراً لكثرة حوادث دهم الترام للمارة في هذه المنطقة.

كان خالي الأكبر الأستاذ عبد الله شهاب، رحِمَهُ الله، محامياً شهيراً وكان يحل في بعض الأحيان ضيفاً على المذيعة اللامعة الأستاذة فايزة واصف في برنامجها الشهير "حياتي"؛ في وقت كان ظهور شخص في التليفزيون في ذلك الوقت شيء يفخر به أقاربه كثيراً، قبل الفوضى الإعلامية التي نعيشها الآن. كان خالي، رحمه الله، مثلي الأعلى. خالي أحمد، أمد الله في عمره، كان مازال يعيش مع جدي وجدتي في منزل الأسرة، كان بوهيمياً حادَّ الذكاء، وكان قارئا نَهِماً يحرص على شراء أكثر من جريدة يومية، الأهرام والمساء عادة، كما كان يشتري تقريبا كل المجلات الأسبوعية، صباح الخير وروز اليوسف والمصور وآخر ساعة. لم أكن أهتم كثيراً بتلك الجرائد والمجلات مكتفياً بقراءة مَجَلَّتَيّ ميكي وسمير، لكن وجودي ولو لفترة العطلة الصيفية في هذا الجو كان دافعاً لي للإستمرار في نهج القراءة. كان أبناء خالي صابر، رحمة الله عليه، إيمان وعلياء وهشام يميلون لقراءة الألغاز مثل الشياطين الخمسة وغيرها، إلا أنني لم أكن أميل لقراءتها. كانت أمي أثناء وجودنا في القاهرة تحرص على شراء مجلة "حواء" وتحتفظ بأعدادها؛ خاصّة التي كانت تحتوي على "باترونات" الخياطة وتمارين الأشغال اليدوية، كما كانت تتصفح مجلة "بوردا" الشهيرة الخاصة بالأزياء والتي كانت بحوزة زوجة خالي عبد الله وزوجة خالي محمود.

نسيت أن أقول لكم أن خالي أحمد كان يدعوني وأختي أماني، في لحظات صفائه، الى ركوب النخلة، وكان هو النخلة، حيث كان يمسك بأكف أيدينا ويرفعها إلى أعلي ثم نتسلق جسده بإرجلنا حتى نقف على كتفيه.

كان الشارع الذي تسكن فيه أسرة أمي من الشوارع الحيوية في ذلك الوقت؛ حيث كان يوجد في نهايته محطة مترو حلوان، وكان ممراً للمتَجِهينَ من محطة المترو لميدان السيدة زينب والعكس. أذكر أيضاً أن تصادف مولد السيدة زينب مع وجودنا في القاهرة في العطلة الصيفية مراتٍ عديدة. كان الزوار يفترشون مداخل المنازل والحواري والأزِقَّة، وكنا نذهب للمولد ونشتري الحمص، ونلعب ألعاب النيشان، والألعاب السحرية والسيرك كما صورها الرائع صلاح جاهين في أوبريت "الليلة الكبيرة".

كان أبي أثناء وجودنا بالقاهرة في العطلة الصيفية دائم التردد على منطقة الإمام الشافعي ومنطقة الجَيَّارَة وشارع حسن الأنور وعين الصيرة بمصر القديمة، حيث يتركز معظم المهاجرين من بلدتنا والقرى المجاورة لها. كان يأخذني معه أحياناً، على غير رغبةٍ مني، لتلك الأماكن، وكان يفضل الجلوس علي المقاهي التي يتجمع فيها أهالي القرية، وكان نصيبي دائماً مشروب حلبة حَصَى. كنا نزور عمي كامل في حلوان أكثر من مرة خلال وجودنا بالقاهرة، وكان هو وأسرته يزورونا أيضا.

22
بدأت الكتابة مبكراً

"إننا نشتاق إليك كما يشتاق الزرع إلى الماء، والعليل إلى الدواء، والطفل إلى ثدي أمه، والجندي إلى النصر ... نحن هنا بخير ولا ينقصنا إلا رؤياك وعمك محمد يهديك ألف مليون سلام، وخالتك تفيدة تهديك ألف مليون سلام، وجدتك وديدة تهديك ألف مليون سلام، ونعرفك أننا بِعنا القُطنَيات وأخوك محمد هيدخل عالعيد، ونعرفك إن الفلوس اللي بعتها مع زكريا وصلت ودقّينا بيها طوب عشان نبني الرواق بتاع محمد في البيت القبلي، كما نعرفك أن أختك باتعة ولدت والجاموسة ولدت."

يعد هذا الخطاب واحدا من النماذج التقليدية التي كانت متداولة في مطلع سبعينات القرن الماضي بين نساء قريتنا وأزواجهن الذين ضاقت بهم سبل العيش في البلد فهاجروا إلى القاهرة أو إلى دول الخليج سعياً وارء الرزق. وكانت نساء القرية تطلبني لكتابة مثل هذا النوع من الخطابات وأنا في المرحلة الابتدائية بإعتباري متعلم وأستطيع أن "أفُك الخط،" أما الورق الذي كنت أكتب عليه هذه الرسائل فكان عادة الصفحات الوسطى من دفاتري المدرسية الحكومية، أنزعها من مكانها لكي ألقي فيها بالاشواق ولوعة الفراق وأخبار المواليد من بني الإنس وذوات الأربع. وكان من المعتاد في ذلك الوقت أن نكتب على المظروف من الأمام ومن الخلف العبارة الشهيرة "شكرا لساعي

البريد" ... لماذا؟ لا أدري، على الرغم من أن القاعدة الشعبية تقول "لا شكر على واجب"

كانت النساء يحتفظن بالخطاب الوارد إليهن من أزواجهن في الخارج وكنت أقوم بنقل العنوان من الخطاب القادم إلى الخطاب الجديد ... بعد قراءة الخطاب الوارد أكثر من مرة فرِحاً بتحلق عائلة الراسل حولي يستمعون بإنصات شديد إلى النشاز اللغوي الذي كتبه أحد رفاق الغربة ممن يستطيعون فك الخط. هذا بالنسبة للخطابات الخارجية التي تذهب عادة إلى إحدى دول الخليج أو إلى ليبيا. وقد كان الكثيرون في ذلك الوقت يعتقدون أن الخليج دولة واحدة فيقولون سافر فلان الخليج أو "راح الخليج" ولا ينتظرون منك أن تسألهم إلى أي دولة في الخليج سافر؟

الرسائل الداخلية التى ترسلها النساء لبعولتهن عادة ما كانت تذهب إلى مكان واحد هو القاهرة، وفي داخل القاهرة كانت الخطابات تذهب إلى مكان واحد هو الإمام الشافعي الذي كانت تقيم فيه الغالبية العظمى من رِقاق الحال الذين يمثلون فائض العمالة الزراعية في قريتنا. ولأن منطقة الإمام الشافعي منطقة عشوائية يختلط فيها الأحياء والأموات فلم تكن هناك عناوين معروفة للمرسل إليهم فكانت الرسائل بدورها تذهب داخل الإمام الشافعي إلى مكان واحد كنت أحفظه عن ظهر قلب وهو "بقالة الليثي،" وقد قدر لي أن أرى بقالة الليثي التي تقع على بعد خطوات قليلة من جامع الإمام الشافعي. إذن

بقالة الليثي كانت مكتب البريد غير الرسمي لأبناء قريتنا في القاهرة، يُحجُونَ إليها بين الحين والحين للسؤال عن رسائل العشاق.

23
الإعارة

الإعارة هي أن تعير أحدهم شيئا لمدة محددة أو غير محددة حسب الإتفاق بين المعير والمستعير. كلمات مثل الإعارة والإستعارة تستدعي لذاكرتي وذاكرة أبناء جيلي إعارة وإستعارة الكتب عادة، لكن بالنسبة للمعلمين في فترة الستينات والسبعينات والثمانينات كان لها معنى آخر، معنى مُحمّل برائحة النفط والدولارات والنظارات "البيرسول" وحقائب "السامسونايت" وفانيلات "المونتوجو" الفرنسية. الإعارة بالنسبة للمدرسين في تلك الفترة كانت نقلة نوعية في الدخل ومستوى الحياة، وكان المدرسون جميعا، تقريبا، يتقدمون بطلبات الإعارة سنويا بصفة دورية. بالنسبة لمصر، كانت الإعارة إحدي أدوات القوة الناعمة لنشر الثقافة المصرية في البلدان العربية حتى يندر أن تجد خليجياً أو يمنياً أو ليبياً من أبناء جيلي إلا وقد تلقى العلم على أيدي مدرسين مصريين.

كان أبي، مثل كافة زملائه يحرص على تقديم طلب الإعارة سنوياً حتى أصابه الدور وزُفَّت إليه بُشرى إختياره ضمن أعضاء البعثة التعليمية المعارة للتدريس في المدارس الليبية إعتبارا من العام الدراسي ١٩٧٥/١٩٧٦، أي بعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ في ليبيا وتولي معمر القذافي مقاليد الحكم بستة سنوات. لاأتذكر مشاعر أبي في تلك الفترة ولكن على الرغم من قدوم الأهل

والجيران والأصدقاء لتهنئتِهِ بإختيارهِ للإعارة لاأعتقد أنه كان سعيدا بذلك؛ فطبيعته المتحفظة وطريقة حياته الروتينية وعدم ميله للمغامرة والخوض في المجهول وعدم قدرته على تدبير أمور حياته المنزلية منفرداً ربما كانت من ضمن العوامل التي جعلت فرحته فرحة مَشُوْبَة بالحذر.

إذن لا مناص من إكمال المسيرة. كنت وقتها في الصف السادس الإبتدائي وكانت أختي أماني في الصف الثالث الإبتدائي. في العطلة الصيفية ذهبنا للتصوير في "ستوديو بشندي" بمدينة سوهاج صورة جواز السفر. كانت جوازات السفر في ذلك الوقت، وحتى وقت قريب، تصدر للأفراد وللمرافقين من القُصَّر أيضاً. إستخرج أبي أول جواز سفر في حياته وكان عمرة ٣٧ عاما وإستخرجت أمي جواز سفر لها ولنا. مازلت أحتفظ بالصورة التي جمعتني وأمي وأختي في جواز سفرٍ واحد.

قرر أبي أن يأخذنا معه إلى ليبيا، وكان من المعتاد في تلك الأيام أن يسافر رب الأسرة ثم يتبعه باقي أفراد الأسرة. سافر أبي إلى ليبيا وإنتقلت مع أمي وأختي للإقامة في كنف جدتي في القاهرة حتى يرسل لنا أبي لنلحق به بعدها بشهرين تقريبا. ألتحقت بمدرسة محمد على الإعدادية بجوار قسم السيدة زينب بشارع "مراسينا"، وإلتحقت أختى أماني بمدسة أمين سامي الإبتدائية بشارع أمين سامي بالمنيرة، حتى يحين موعد الرحيل لليبيا لِلّحاق بأبي.

من حظ أبي العاثر أنه تم توزيعه في ليبيا على مدرسة "أوباري" الإبتدائية في محافظة سبها في جنوب ليبيا. كانت أوباري تبعد عن مدينة سبها، عاصمة المحافظة، حوالي ٢٠٠ كيلومتر، أي ما يعادل المسافة من القاهرة للأسكندرية، بينما كانت سبها تبعد عن العاصمة طرابلس حوالى ٧٦٠ كيلومتر. لم نكن معتادين على تلك المسافات الطويلة.

24
في ليبيا

بعد بدء الدراسة بأسابيع قليلة أرسل لنا أبي تذاكر السفر بعد أن إستقر به المقام في أوباري. ذهبت بصحبة والدتي وأختي أماني وجمع غفير من أسرة والدتي إلى مطار القاهرة لأول مرة في حياتي مبتهجا بركوب الطائرة لأول مرة في حياتي أيضاً، حيث إتجهنا إلى مدينة بني غازي. كان والدي وأحد زملائه في إنتظارنا. أذكر أننا بِتنا ليلة أو أكثر عند زميل أبي وأسرته في بني غازي قبل أن نستقل الطائرة إلى سبها، ثم منها إلى مدينة أوباري. كانت مدينة أوباري أشبه بالقرية إلى حد كبير. كان الليبيون يسمون البيوت أحواشاً – جمع حوش – وكنا ومازلنا نسمي المقابر أحواشاً. كانت الأحواش مبنية بطريقة بدائية من طابقٍ واحد فقط هو الطابق الأرضي. يُستثنى من ذلك بعض المباني الحكومية القليلة، قسم الشرطة وقصر الثقافة والمدرسة الإبتدائية، ثم بعد ذلك المدرسة الإعدادية الجديدة.

كانت مدينة أوباري مدينة صحراوية بإمتياز، فلا تقع عيناك على مساحة خضراء إلا فيما ندر. كانت منطقة الخدمات بالقرية بها سوقاً وبعض المباني الحكومية، وكان المستشفي بعيداً عن قلب المدينة. كانت البيوت تنقسم إلى قسمين، قسم حكومي وقسم أهلي عشوائي. كانت المساكن الحكومية أحد منجزات ثورة الفاتح من سبتمبر الرامية إلي توطين البدو وساكني الصحراء،

وكانت مبنية بالطوب الأسمنتي والأسمنت، وتشبه إلى حدٍ كبير الفيلات التي يتم بناؤها في المدن الجديدة في مصر. كانت ذات طابق واحد ومتصلة بشبكة المياه والكهرباء. المساكن غير الحكومية كانت مبنية من مواد بدائية وهي الوحيدة المتاحة للتأجير للغُرباء.

كان أبي قد إستأجر قبل مجيئنا "حوشاً" من السيد أحمد رمضان الذي كان يعمل عسكري شرطة في مركز شرطة أوباري. كان السيد أحمد رمضان يسكن في منزل يقع خلف منزلنا مباشرةً. كان يسكن في البيت المجاور لنا مصري متزوج من ليبية وأسرة السيد "وَلِّي عبد الوهاب" الذي كان يعمل موظفاً في مكتب البريد. كان إبنه منصور من أقرب أصدقائي، هذا بالإضافة إلي إخوته مصطفي وعبده وإخوة آخرين. كان السيد أحمد رمضان والسيد ولي عبد الوهاب من الطوارق، سُمر البشرة، ويتحدثون فيما بينهم بلغة أخري لم أكن أعرفها.

كانت الحياة بدائية وبسيطة ولكن كان هناك كهرباء ومياه، وإن كانت هذه الخدمات في حدودها الدنيا؛ فالكهرباء كانت عادة للإنارة. لمبات عادية متدلية من أسقف الغرف وصنبوري مياه واحد في دورة مياه تقليدية والأخر في حوض أسمنتي نضع فيه آنيتنا لتعبئتها بالماء. كانت درجة حرارة المياه مرتفعة بشكل كبير في الصيف، فنحن في قلب الصحراء الكبرى تقريباً. حياة جيراننا كانت حياة بدائية بإمتياز. كانوا يقددون اللحم بتمليحة ونشره على حبال

ليستخدموه بعد ذلك، كما كانوا يتركون الحليب في آنيته حتى يتخثر ثم يشربونه.

على الرغم من تلك الحياة البدائية كانت الحياة بالنسبة لنا أفضل بكثير من حياتنا في بلدتنا بصعيد مصر. هنا بعض الكهرباء وبعض الماء، بالإضافة إلى أننا إشترينا مسجل – جهاز تسجيل – توشيبا وكان عندنا لأول مرة ثلاجة صغيرة ٨ قدم. وكان لنا أن نستمتع ببعض ما لم يكن متوافراً لنا في بلدتنا من المنتجات الحضرية المحفوظة مثل المربى والجبن المثلثات وأنواع أخرى من الجبن وحليب نيدو المجفف والشيكولاته، والأهم من ذلك المكسرات، التي لم تكن منشرة في مصر لحظر إستيرادها منذ أيام عبد الناصر. وكذلك الذي كان يسمى في مصر تفاح أمريكاني، فهو هنا هو تفاح فقط لأننا لم نكن نرى أنواعا أخرى غيره. هذا بالإضافة إلي الشيكولاته والحلويات المختلفة التي كانت تمتاز بجودتها العالية في ذلك الوقت نظراً لأنها كلها كانت منتجات مستوردة.

إلتحقت بالمدرسة الأعدادية وتتلمذت على أيدي مدرسين مصريين وعرب ولا أذكر أن درست على أيدي مدرسين ليبيين على الإطلاق. كانت مدرستي الإعدادية عبارة عن مجموعة من المساكن الحكومية المتجاورة التي تم تخصيصها للمدرسة الإعدادية الوحيدة بأوباري في ذلك الوقت. لم يكن بالمدرسة فناءً، وكنّا ننتظم في طابور الصباح في الشارع. إلتحَقَت أختي أماني بالمدرسة الإبتدائية التي كان يعمل بها أبي، وكانت المدرسة أكثر تطوراً من مدرستي

الإعدادية؛ حيث كانت مُصممة بالأساس لتكون مدرسة، فكانت متعددة الطوابق وبها فناءٌ واسع كبير، لكنها كانت تبعد قليلاً عن مدرستي.

لم يكن هناك سن محدد لدخول المدرسة في ليبيا في ذلك الوقت، ولم تكن أعمار التلاميذ متقاربة، ولم يكن معظم التلاميذ الليبيين يهتمون بالتحصيل الدراسي. نحن كأغراب كان يفترض أننا أكثر إهتماما بالدراسة من أقراننا الليبيين، كما كان مدرسونا يعرفون أبائنا وكانوا يناقشون أدائنا الدراسي معهم، فكنا نبذل مجهودا أكبر حتى لا يشي بنا معلمونا لهم. أذكر مرة أن الأستاذ "حوّاش" مدرس العلوم قد وشي بي لأبي وأخبره بأن أدائي الدراسي غيرَ مرضٍ، وأن عليَّ أن أبذل جهداً أكبر. بعد سنة من الدراسة في هذه المدرسة إنتقلت المدرسة كلها إلى مبنى آخر أكثر رحابة أسمَوه "مدرسة أوباري الإعدادية الثانوية" وكانت تلك المدرسة مجهزة بكافة التجهيزات والملاعب والمعامل.

25
المصريون في ليبيا

كان أبي متحفظاً بشكل كبير في علاقته بالمصريين في ليبيا فلم يكُن له من الأصدقاء المقربين سوى الأستاذ جمال سلامة، زوج "تانت" زينب من بنها، والأستاذ محمد عويس وأسرته من شبرا مصر. الدائرة الثانية من أصدقاء أبي كانت تتكون من الأستاذ عبد الرؤوف وأسرته من الشرقية، والأستاذ أحمد أمين مدرس التربية الموسيقية وأسرته من قِنا. كنا نعرف أيضا بعض العاملين في مجال المعمار من أبناء سوهاج أذكر منهم عمِ خلف، ربما لأنني مازلت أحتفظ بصورة لي معه في أستوديو أوباري للتصوير. أذكر أن المصور كان مصرياً أيضا.

كان أبي ورِفاقه ينظرون لليبيين نظرةً دونية، رغم حبهم لهم وإطرائهم على طيبتهم وحسن معشرهم، وكانوا ينتقدون جهلهم وتخلفهم في ذلك الوقت. كما كانوا لا يحبّون ناظر مدرستهم، هذا الشاب الليبي الغرير، الذين كانوا يسمونه "الدبان" أي الذُباب. لا أعرف أصل التسمية، لكنني كنت أسمعهم دائما ينتقدون تصرفاته الهوجاء وقلّة خبرته. ربما لأنهم نشأوا في مصر على النظام التراتبي والأقدمية المطلقة فكان من الصعب عليهم تَقبُل أن يترأس المدرسة شابٌ صغيرٌ بدون خبرة.

كانت هناك نماذج من المصريين الذين كان أبي ورفاقه لا يذكرونهم بالخير؛ منهم مدرس يدعي الأستاذ فؤاد كانوا يقولون أنه يشوه صورة مصر ويحكي لتلاميذه الليبيين قصصاً عن ملاهي شارع الهرم. كان من بين زملاء أبي أيضاً الأستاذ علي الشربيني من محافظة كفر الشيخ أذكر أننا كنا نزوره في بيته المجاور لبيتنا. كان هناك أيضا بعض العاملين من بلدتنا يقيمون في مدينة سبها يعملون في قطاع المعمار، وأذكر أننا كنا نزورهم عند ذهابنا لمدينة سبها في طريقنا للمطار للسفر للقاهرة.

بخلاف المصريين، كان يسكن بجوارنا مجموعة من المغاربة، وأسرة سورية، وأسرة من أريتريا. كانت هذه أول مرة في حياتي أعيش التعدد وأتعامل مع أشخاص من جنسيات وعرقيات وألوان مختلفة، في مرحلةٍ مبكرةٍ من عمري.

26
الثقافة في مجتمع بدائي

أتاح لي وجودي في ليبيا بعد سنوات قليلة من ثورة الفاتح من سبتمبر أن أحتك بالثقافة الحضرية التي لم تكن متوافرة في بلدتي بصعيد مصر. كان قصر ثقافة أوباري يفتح أبوابه للجميع، وكنتُ أحرص على الذهاب لقصر الثقافة لقراءة الكتب والمجلات، والمشاركة في الأنشطة الفنية، كما كانت هناك مكتبة لبيع الجرائد والمجلات، وكنت أحرص علي شراء مجلة الأطفال الليبية الوحيدة، مجلة الأمل، كما كانت أمي تحرص على شراء مجلات وجرائد عديدة أذكر منها مجله علمية كان إسمها مجلة العلم والإيمان تصدر من تونس.

كانت الأنشطة المدرسية متطورة ومتميزة في ذلك الوقت، ربما لتوافر الموارد المالية. إلتحقت أثناء دراستي بفرقة الموسيقى التي أسسها الأستاذ أحمد أمين صديق والدي مدرس الموسيقي بالمدرسة، وبدأت العزف على آلة النفخ المسماة بالميلوديكا، ثم تطور الأمر إلى العزف على الأوكورديون. كانت كافة الإمكانيات متوفّرة للأنشطة الثقافية المدرسية. أذكر أننا ذهبنا لمدينة "زليتن" الساحلية للمشاركة في أحد المهرجانات الموسيقية المدرسية حيث قامت المدرسة بشراء بدلة – حلة – بلون موحد لكافة أعضاء الفريق الموسيقي. أعتقد أنها كانت أول مرة في حياتي أرتدي بدلة كاملة للمشاركة كعازف في فرقة المدرسة الموسيقية.

كان المسرح المدرسي مزدهرا بقيادة الأستاذ عبد الرؤوف، وأذكر أنني شاركت بدور صغير في إحدى المسرحيات حيث قمت بدور المسئول الذي يقنع الناس بالمزايا التي منحتها لهم الثورة – ثورة الفاتح من سبتمبر – في مجال الإسكان والتنمية الزراعية.

على الرغم من عدم إرتباطي الكبير بالرياضات البدنية إلا أن المدرسة التي كنت أدرس بها كان بها عدة ملاعب لكرة القدم والكرة الطائرة وكرة السلة، كما كان بها صالة ألعاب مغطاة كبيرة مجهزة بكافة الأدوات الرياضية. كان مدرس الألعاب مصرياً لا أذكر إسمه الآن. كانت الأنشطة الفنية المدرسية أيضا محل إهتمام المدرسة، وكانت حصة التربية الفنية فنيةً بإمتياز. كان مدرس التربية الفنية فلسطينياً يشبه الفنانين البوهيميين، تعلمت منه فن طي الورق – الأوريغامي.

27
مرثية

كانت القطيعة قد بدأت بين مصر وليبيا علي المستوى السياسي نظراً لمعارضة القذافي للسلام الذي بدأ خطواته الرئيس الراحل أنور السادات مع إسرائيل، وكانت الخطوط الجوية المباشرة بين ليبيا ومصر متوقفة. توجهنا من مطار سبها إلي مطار بنغازي، ثم ركبنا طائرة أخرى لأثينا، حيث إنتقلنا بعد وصولنا بالحافلة الي مطار آخر لكي نستقل طائرة أخرى تنقلنا للقاهرة. في القاهرة كان في إستقبالنا بالمطار جمع غفير من أقاربنا حملوا جثمان والدتي ليوارى الثرى في مقابر الأسرة بالصعيد تحت سفح الجبل الشرقي لكي تُجمع عظامها إلى عظام آبائها إلى يوم النشور.

الطبعة الأولى 2015

توجد نسخة كاملة من هذه الرواية على موقع المؤلف
بالشبكة الدولية للمعلومات بالاضافة إلى العديد من الكتابات
الاخرى

www.zohry.com

هذه الرواية

ذكريات طفولتي منذ أن ولدت في تلك القرية النائية في صعيد مصر تطاردني. أريد أن أحكيها، أريد أن أقصها عليكم. ربما أتخلص من هاجس ظل يؤرقني طوال حياتي: لماذا أنا هو أنا؟ ما الذي يشكل قناعاتي في تلك المرحلة الإنتقالية من حياتي، مرحلة الإنتقال من صخب الأيديولوجيا الى مرحلة إجترار الذكريات. أليست السنوات الأولي من عمر الإنسان هي التي تحدد تصرفاتنا في كافة مراحل حياتنا كما يزعم علماء النفس؟ إذن دعوني أخرج ما في مكنون نفسي. دعوني أرى ذلك الطفل الصغير الذي فقد أمه ولم يتجاوز الرابعة عشر من عمره. دعوني أسرد قصة هذا الطفل الذي ربما تتشابه قصته مع الآلاف من أبناء جيله. كم أشفق على ذلك الطفل وأتمنى أن أحتضنه الآن وأضمه الى صدري لأعوضه بعضا من حنان الأم الذي فقده في مرحلة مبكرة من عمره.

المؤلف

ISBN: 978-977-90-2987-0